

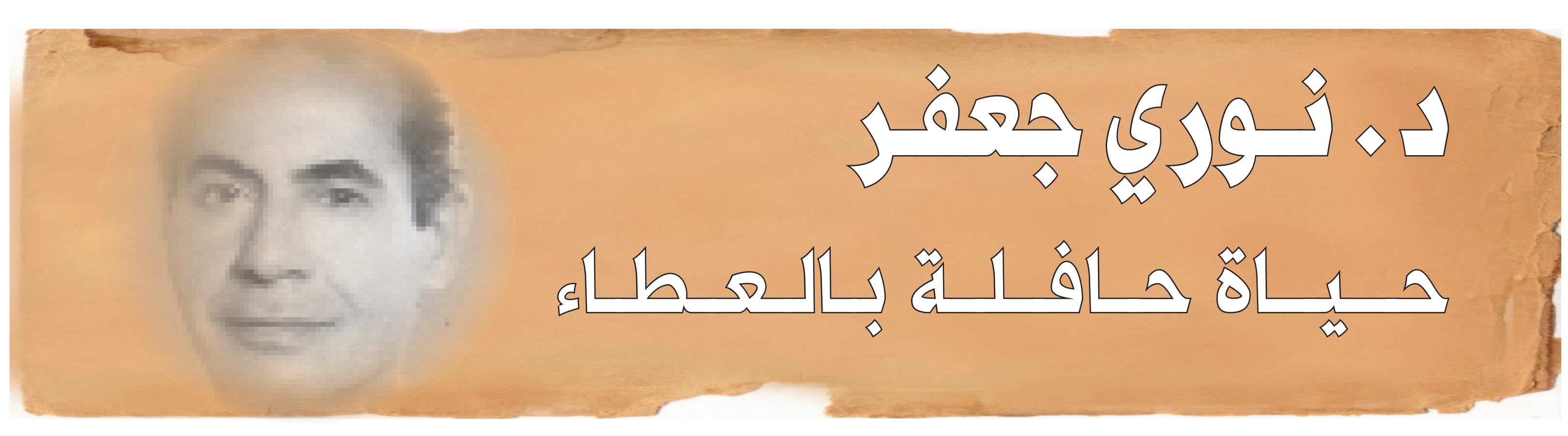
رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2001) السنة الثامنة
الخميس (30) كانون الاول 2010



نوري جعفر



ان الرؤية التي تبناها الدكتور نوري جعفر والمتمثلة بالصعوبات الكثيرة والكبيرة في استيراد التكنولوجيا من الدول الصناعية المتقدمة باسعار باهضة وبمواصفات غير ملائمة احيانا وذلك لاستخدامها باقصي حد من السرعة بكوادر بشرية غير مهيأة التهيئة التكنولوجية الكاملة وتطبيقها على مجتمع ما زال هو الاخر غير مهيأ لها من الناحية السايكولوجية.

معنى هذا اننا نواجه قضايا اجتماعية وسايكولوجية كبيرة بالاضافة الى استيراد التكنولوجيا باسعار باهظة جدا. هذه السلبيات التي نوردها جراء الاستهلاك الكبير والمباشر للتكنولوجيا الغربية وتطبيقها على مجتمع متخلف تكنولوجيا وثقافيا وبامكانيات بشرية مدربة تدريبا محدودا من الناحيتين الكمية والنوعية تمثل كارثة كبيرة على المجتمعات العربية ومن جهة ثانية فان هذه الجهات المصدرة للتكنولوجيا تستخدم هذه التكنولوجيا كورقة ضاغطة اقتصادية على الدول المستفيدة اي انها شركات احتكارية كبرى تسعى للحصول على ارباح فاحشة. كما تسعى ايضا لضمان الحصول على تلك الارباح لفترة طويلة من الزمن عن طريق التصدير والتشغيل والقيام بالصيانة للتكنولوجيا المصدرة حيث ان هذه الشركات لا تبين كيفية صيانة اجهزتها اذا احتاجت للصيانة الا عن طريق مهندسيها وفنييها وعمالها مما تستمر لديها فترة الحصول علي الارباح الكبيرة وهذه رؤية نهضوية كبيرة عمل عليها نوري جعفر نرى تطبيقاتها على ارض الواقع، حيث استمعت الى وزير الكهرباء العراقي في ظل حكومة رئيس الوزراء نوري المالكي:كريم وحيد حيث صرح اننا اردنا التعاقد مع شركة هيتاشي لنصب محطة كهرباء متكاملة في العراق ولكن ارادوا منا التعاقد معهم ايضا على ان يكون كادر صيانتها وتبديل مستلزمات المحطة مستقبلا كله علي كادر هيتاشي وعدم تدريب اي مهندس عراقي للعمل في المحطة مما يدلل كلامنا هذا علي صحة ما ذهب اليه نوري جعفر وحداثة ما اطلقه من افكار قبل اكثر من ٣٠ سنة وما زالت افكاره حية بيننا اليوم.

كذلك من توصيات الدكتور نوري جعفر التي يريد من خلالها تطوير البحث العلمي والتربوي للحصول على التكنولوجيا المطلوبة هي:

١ ـ ان تقوم مؤسسات البحث العلمي ومراكز البحوث في الاقطار العربية وبالتعاون مع المؤسسات التربوية الاخرى لاسيما الجامعات بدراسة شاملة وعميقة لخبرة الدول المتقدمة في مجال التكنولوجيا من الناحية التاريخية بجانبيها الايجابي والسلبي وذلك لتفادي الوقوع في الاخطاء التي وقعت فيها تلك الدول في فترة تاريخية سابقة.

يجب ان تتم عملية نقل التكنولوجيا وتطويرها وان نتجنب نقل ادوات تكنولوجية قديمة الطرازات او ان نستورد ادوات تكنولوجية متقدمة جدا وباهظة الثمن ومعقدة التركيب بالنسبة للعنصر البشري المتوافر لدينا الذي يستخدمها،والا نستورد ادوات تكنولوجية مبسطة على اساس انها تلائم مرحلتنا التاريخية الراهنة دون النظر الى امكانيات تقدمنا في المستقبل.نوري جعفر قد نظر ايضا الى موضوع التنمية المستدامة من خلال كل ما طرح سابقا من افكاره قبل ظهوره بعشرين سنة وايضا اراد من الدولة كتحقيق جانب تنموي من خلال الحفاظ على البيئة بعدم استيراد ادوات تكنولوجية من خصائصها تلويث البيئة وان نتوخي الدقة في اختيار مواقع اقامتها وتشغيلها كما استخدم كلمة ((التكنولوجيا النظيفة)) و((التوزيع التكنولوجي النظيف)) مما يدلل على انه كان مهتما بتنمية البيئة كاساس للتنمية المجتمعية علما انه استخدم المصطلحين آنفي الذكر كانطلاقة اولى باستخدامهما حيث ان هذين المصطلحين لم يستخدما من قبله على حدود علمنا.

اذن نوري جعفر قاس التنمية في البلاد العربية علي اساس التنمية المستدامة للموارد البشرية في جميع قطاعات التاهيل والعمل والانتاج، وحجم التوظيف المكثف والبحث العلمي والتكنولوجيا والعلوم العصرية،وقد دلت تجارب التنمية الناجحة في جميع دول العالم على ان التعليم العصري والاعداد او التدريب الجيد، والادارة الحديثة هي التي ترفع بشكل بارز نسبة الدخل الفردي والقومي.

ودائما وفي اي موضوع لا ينسى نوري جعفر التراث في جانبه التنويري للافادة منه في جانب التنمية والتعليم وكانه يريد ان يقول ايها العرب ان ماضيكم بماحمل من بعض الخصائص هو افضل من حاضركم بكثير ومن جملة ما يذكره من حوادث تاريخية تهتم بالجانب التنويري التنموي هي الحادثة التالية:

في قضية الانهماك العلمي

ان ابن سحنون كان منهمكا في القراءة والكتابة في احد الايام الى ان حان موعد العشاء فجاءته جاريته بالعشاء فقال لها :يا ام مدام انا مشغول عن العشاء بما انا فيه. فوقفت صامتة على رأسه فلما طال انتظارها اخذت تلقمه الي ان اتت علي الطعام كله. وانصرفت واستمر هو على حاله الى ان اذن المؤذن لصلاة الصبح، فطوى اوراقه وقال: يا ام مدام هات الان ما عندك من العشاء. فقالت: اطعمتك اياه يا سيدي. فقال والله ما شعرت بذلك وحالات اخرى طريفة وكثيرة يذكرها نوري جعفر مهمة تدل على اثر الانهماك في العمل العقلي في رفع مستوى ثقافة المرء.

وبالتالي فان مطالبات نوري جعفر بالانغماس العلمي ومن خلال التاريخ تأخذ مديات واسعة جدا تتطلب عملا روحيا مستمرا كما في حادثة ابن سحنون المارة الذكر،والعلامة نوري جعفر وقع في مسألة اساسية ينبغي الاشارة اليها وهو انه تكلم عن موضوع التنمية والمؤسسات التربوية في العالم العربي ككل ولم يأخذ بالحسبان خصوصية كل بلد عربي فيما يخص مسألة التنمية ودور المؤسسات التربوية فيه. فكان لزاما عليه ان يأخذ هذه الخصوصيات للبلدان العربية على الاقل يجد المتشابه والمختلف بين بعضها البعض لا ان يطلق تعميمات كاملة حول وضع المؤسسات التربوية في العالم العربي ككل كما فعل في ارائه الواردة في هذا الفصل ولكن تبقى هذه الآراء اساسية في عملية النهوض التي ترجوها المجتمعات وينبغي اقتفاء الكثير من الآراء هذه ووضعها موضع التنفيذ لتحقيق نهضة اساسية في عمل المؤسسات التربوية في العالم العربي ومن ثم ايجاد نهضة اقتصادية مرجوة وتنمية اساسية في هذا المجال.

العراقيون أمام الدستور

يعرض نوري جعفر فقرات من الدستور العراقي المكتوب في العهد الملكي ومنها الفقرة السادسة :لا فرق بين العراقيين امام القانون وان اختلفوا في القومية والدين واللغة ويذكر المواد المتعلقة بالحريات من حرية ابداء الراي والنشر والاجتماع وتاليف الجمعيات والانضمام اليها ويركز كثيرا على عرض فقرات الدستور وذلك لانه اعتبر ان الدستور كوثيقة هي عبارة عن مبدأ او مجموعة مبادئ تتفق عليها الامة، وعرض نوري جعفر مواد الدستور مركزا فيها علي المواد المتعلقة بجوانب الحريات الشخصية وصيانة هذه الحريات ومواد المساواة بين كل العراقيين والسيادة للامة علي نفسها. مبتغيا من وراء ذلك ان يركز المتلقي على جوانب المبادئ التي تخص الحريات الاساسية.كما ويعرض من باب المبادئ حقوق الانسان الذي وضعته هيئة الامم ويركز على هذه الحقوق التي تخص المساواة والحريات، ومما يميز قراءة نوري جعفر هذه انه يقارن بين المبادئ النظرية التي تضمنها الدستور العراقي الملكي ووثيقة الامم المتحدة وبين واقعها العملي وتصرفات من يدعون انهم يحملونها من ذوي النفوذ وهذا ما سندخل في تفاصيله فيما بعد من هذا الفصل.

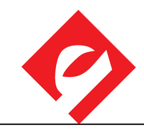
والمبدأ في نظر نوري جعفر كالكائن الحي من حيث نشوؤه وضعفه واندثاره يبدأ ضعيفا فاذا كتب له النصر وصادفته ظروف عامة محلية وعالمية ملائمة نما وانتشر وازدهر فالمبادئ تظهر ضعيفة من الناحية المادية ليست لدى اصحابها او حملتها قوة مادية كبيرة في الرجال او السلاح او المال بالنسبة لخصومهم لنشرها بين الناس ولهذا نجد حملتها يستندون لغرض التبشير بها في هذه المرحلة من مراحل نشاطهم المادي والفكري على المنطق النظري والمناقشة والاقناع بوجاهة مبادئهم وخطل المبادئ التي يناوئونها وتتسع الدعوة الي المبدأ الجديد مع الزمن كلما كثر عدد المؤمنين به. ويتم ذلك بالطبع على حساب المبدأ الذي يناوئونه فضعف احدهما معناه قوة الاخر. فاذا كتب البقاء للمبدأ الجديد فانه ينتقل بعد ان يصبح له اتباع ومؤيدون الى المرحلة الثانية: ويسميها نوري جعفر ((مرحلة الاستناد الي النار والحديد))وهي تسمية خطيرة جدا اذا ما قارناها بالاسس التي نشأت عليها الاديان أي قوة السيف والسلاح.وهذا يعني انه ينتقل الي المرحلة الثانية،القوة المادية المسلحة ويتوقف نجاحه في هذه المرحلة على ضعف القوة او القوى التي تنازعه البقاء فاذا كتب له الظفر فان ذلك يؤدي الى تقوية الاقلية التي تحمله تقوية مادية ومعنوية، تلك الاقلية التي جمعتها وحدة الايمان بالمبدأ الجديد او وحدة المصالح المشتركة التي تتمثل في الدفاع عنه ماديا وفكريا، بالسيف والقلم واللسان، الامر الذي تنبثق عنه اكثرية تابعه بمرور الزمن رغبة او رهبة وتتكرر المرحلتان الآنفتا الذكر بالتتابع اذا ما حاول اصحاب المبدأ الجديد الخروج عن الحدود الجغرافية للموقع الذي نشأ ذلك المبدأ فيه، وهنا يضع نوري جعفر مقارناته الخطيرة عندما اعتبر ان الاسلام اجتاز المرحلتين الانفتي الذكر في النطاق المحلي والواسع على السواء واجتازت الديمقراطية والشيوعية المرحلتين المذكورتين في النطاق المحلي واجتازتا المرحلة الاولى في النطاق العالمي، وهما الانفي المرحلة الثانية في هذا النطاق الواسع الكبير. فبالتالي المبادئ الناشئة حسب رؤية نوري جعفر تبدأ ضعيفة ثم تقوى شيئا فشيئا يقومها من هو منتفع من المبادئ السابقة ويحتنها من هو سينتفع بالمبادئ الجديدة وسرعان ما تنهار المبادئ القديمة اذا ما كتب الظفر للمبدأ الجديد بغض النظر عن المفاضلة بين القديم والجديد وبغض النظر كذلك عن سلامة الجديد او عدم سلامته من الناحية العملية.

كما يعرض نوري جعفر الى الجوانب النفسية في حالتي الثواب والعقاب وضرب الامثال اثناء السلم والحرب التي يستند اليها من حيث الاساس اصحاب المبادئ الجديدة او المبشرون بها في الاسلام فيذكر كل آيات العقاب الواردة في القرآن وكذلك آيات الثواب وكذلك الآيات التي تدل علي الحرب ولبس لامتها. ويعتبرها جوانب نفسية بحته استثمرت نوازع الخوف والامل في ان واحد عن طريق العقاب والثواب للافراد الذين تناجيهم.

سلوك الجنس البشري

ويربط نوري جعفر ربطا مهما بين المبادئ والدعوة الى الاصلاح للاوضاع القائمة الفاسدة بمقاييس حملة المبادئ فوسيلة اصلاح المجتمع الفاسد عن طريق المبدأ الديمقراطي تختلف كثيرا عن وسيلة اصلاحه عن طريق الشيوعية أي ان المبادئ ذات اهداف عامة متقاربة من حيث الاساس غير انه لا تتفق دائما في الوسائل.

كما يعتبر نوري جعفر ان قضية تغيير بعض المبادئ القائمة في الدولة كالدساتير وبعض القوانين من اجل الاصلاح للاوضاع القائمة لهو امر اساسي وضروري،وكانما هو يناغم مرحلتنا الحالية،فلا ضير ان يغير بعض فقرات الدستور او بعض القوانين في سبيل ارساء بعض الاصلاحات المهمة في البلاد والا نبقى على الاوضاع الفاسدة القائمة بحجة عدم استطاعتنا تغيير الدستور.ويعرض لبعض جوانب تعديل الدستور الامريكي ولما لهذا التعديل من اهمية لانه اتاح قدرا اكبر من الحريات ومنها تعديل المادة التاسعة عشرة منه في عام ١٩٢٠م وفيها ادخل حق المرأة في التصويت لانتخاب اعضاء مجلس النواب. ثم ان نوري جعفر يبحث عن الجوانب التطبيقية للمبادئ ويحث على ايجادها والا تكون المبادئ هي عبارة عن حبر على ورق فالغاية من ايجادها هو التاثير في سلوك الجنس البشري الحاكمين والمحكومين على السواء عن طريق تطبيق نصوصها. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول انه لا قيمة للمبادئ مهما بلغت من السمو في محتوياتها النظرية من الناحية الواقعية اذا لم يتسن لتلك المبادئ ان تتبناها فئة من الناس نظريا وعمليا. كما يشير نوري



نوري جعفر قاس التنمية في البلاد العربية على اساس التنمية المستدامة للموارد البشرية في جميع قطاعات التأهيل والعمل والانتاج، وحجم التوظيف المكثف والبحث العلمي والتكنولوجيا والعلوم العصرية،وقد دلت تجارب التنمية الناجحة في جميع دول العالم على ان التعليم العصري والاعداد او التدريب الجيد، والادارة الحديثة هي التي ترفع بشكل بارز نسبة الدخل الفردي والقومي. ودائما وفي اي موضوع لا ينسى نوري جعفر التراث في جانبه التنويري للافادة منه في جانب التنمية والتعليم

مراقبون
من زمن التوهج
العدد (1883)
السنة الثامنة
الخميس (19)
كانون الاول 2010

جعفر اشارة سايكولوجية مهمة تتعلق ببناء الانسان كأساس لبناء المجتمعات وهي ان المبادئ نستطيع ان نضخها للمجتمع عبر تغذيتها للاطفال الذين ينشأون بحكم تفاهتهم بمقاييس الكبار من الناحيتين المادية والمعنوية مزودين بمرونة الخضوع للمبدا الجيد اما غرس المبادئ في الكبار المعتادين على اخلاقيات مجتمع معين فهذا امر يتطلب الكثير من المجهود. وينبغي ملاحظة سلوك الافراد كدلالة دالة علي تشربهم بالمبادئ الجديدة ومدي التزامهم بها، وينبه نوري جعفر انه اذا كتب النصر للمبدأ الجديد انضوى تحت لوائه (بالاضافة الى المؤمنين به ايمانا صافيا) بعض الوصوليين او الانتهازيين حفظا لمصالحهم القديمة او املا بالانتفاع في كسب مغانم جديدة كما ان هؤلاء الانتهازيين يكونون من اكثر الناس محافظة على المبدأ الجديد لضمان مصالحهم فتبدأ حالات صراع مجتمعية بينهم وبين الناس بدعوى حفاظهم علي المبادئ الجديدة وبالتالي فهم لا يختلفون عن سابقيهم من العهد القديم. ويعلق نوري جعفر على هذه المسألة قائلا بما نصه ((فكأن التاريخ البشري، من ناحية المبادئ والرجال، صراع بين فئات من الناس ترتبط كل منها بروابط فكرية خاصة ـ يسميها كارل مانهايم ـ في علم الاجتماع perspectives detached فاذا انتصرت فئة ما على من ينافسها فان ذلك يعني انتصار المبدأ الذي تؤمن به او تتظاهر بانها تؤمن به. وهذا يتضمن ان يصبح المبدأ المنتصر هو المبدأ السائد على ما يري نوري جعفر في المجتمع فيخضع له السكان راضين او متذمرين اما من الناحية الفكرية فيعتبر نوري جعفر ان القائمين على المبدأ القديم يسعون الى تقوية ايمان الناس بالمبدأ السائد الذي يرتكز عليه النظام القائم، ومما يجعل مهمتهم ليست بالعسيرة هو ان اغلبية الناس لا تميل الى تغيير ما الفته من عقائد وتقاليد، واذا كانت جماهير الناس بالعهد البدائي (الذي مر به الجنس البشري لاتميل الي تغيير وسائلها المادية واساليبها الالية في الحياة وهو ما يطلق عليه اسم: technological piety دع عنك مبادئها في الدين والسياسة والاخلاق فان الانسان الحديث ما زال رغم تحرره من الخضوع للجانب الآلي غير راغب من الناحية النفسية في تبديل عقائده وافكاره بشكل سريع. وفي هذا يشير نوري جعفر ومن خلال هذه الافكار الى ان الناس يألفون ما طبعوا عليه او كما يسميه سلامة موسى ان الناس الفوا الكسل فلا يستطيعون التغيير لمجمل افكارهم وعقائدهم لذلك فان التغيير الفكر او المبدأ السائد بآخر افضل منه يعتبر من الشجاعة والاستطاعة الانسانية القوية لذلك ربط نوري جعفر المبادئ بالرجال، والرجال حسب رؤية نوري جعفر ينقسمون قسمين من ناحية صلتهم بالمبادئ: اصحاب المبادئ بغض النظر عن نوعها وسلامتها، والوصوليون او الانتهازيون الذين مبدؤهم عدم قبول مبدأ معين اللهم الا مبدأ اللامبدأ. اما اصحاب المبادئ فيصنفهم نوير جعفرالى قسمين :اصحاب المبادئ الفاضلة أي التي تهدف الى نشر العدالة الاجتماعية بين الناس ورفع مستوياتهم المادية والفكرية دون تمييز الا على اسا س الايمان بها،واصحاب المبادئ الفاسدة. وهنا يقول نوري جعفر بما نصه معلقا على هذه الافكار : ((وعندي ان علي بن ابي طالب يقع في قمة الصنف الاول.ويقع الشيطان (كما جاءت سيرته في القرآن) في قمة الصنف الثاني)) ونوري جعفر قد تحدث عن مبادئ علي بن ابي طالب في عدد من الكتب منها (علي ومناوئوه) (والصراع بين الامويين ومبادئ الاسلام) و(فلسفة الحكم عن الامام). ويعتبر نوري جعفر ان الشيطان صلب في الدفاع عن عقيدته على الرغم من سخافة عقيدته بمقاييسنا الاسلامية ـ على حد تعبير ـ ويذكر من القران الايات التي ذكر بها الشيطان

2

يعد الكلام عن التنمية من الاساسيات المنتظرة لاي مفكر او باحث في المجالات الحداثوية او النهضوية والتنمية هي ليست فقط في المجال الاقتصادي بل التنمية الثقافية والتنمية السياسية والتنمية المجتمعية والتنمية الاقتصادية وتعد التنمية الاقتصادية من اهم انواع التنميات بل يعتبرها بعض المفكرين المحرك الاساسي لانواع التنميات الاخري فلا تحدث تنمية مجتمعية او ثقافية او سياسية دون وجود تنمية اقتصادية ولو اننا نذهب الى ان اساس التنمية في المجتمع هي السياسية فبالاصلاح السياسي تتكون التنميات الاخرى وتتعاضد في تشكيل الهوية النهضوية للمجتمعات وسنبحث في هذا المجال اكثر في كتابنا القادم (التنمية واقع اممي)، ما يهمنا هنا ان نشير الى ما ذهب اليه نوري جعفر في اهمية التنمية في المجتمعات كاساس استراتيجي للبناء مما يدلل على ان التنمية تسهم اسهامة مباشرة واساسية في قضية النهضة ومما يدلل ايضا على رؤية نوري جعفر الثاقبة كرجل اصلاح ونهضة والا لما فكر في موضوع حيوي كموضوع التنمية.

وهو يبحث بالذات بموضوعه الاساسي التربوي واثر المؤسسات التربوية بإحداث نهضة اقتصادية فهو يدعو الى اقامة ربط عضوي بين مؤسسات التعليم لاسيما العالي وبين خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية من جهة وبين العلوم الطبيعية والتكنولوجية من جهة اخرى لاهميتها طبعا في تحقيق التنمية الاقتصادية فهو يشير الي مجموعة من الاراء منها الترابط الكبير بين العلوم التطبيقية كالفيزياء والكيمياء كما اشار نوري جعفر الي مسالة اساسية من ناحية حلول النزعة التعاونية بين العلماء بدل زمن العلماء الافذاذ، كما انه يلزم المجتمع بالنظر الى العلوم بجانبيها النظري والتطبيقي من حيث كونها ظواهر اجتماعية تاريخية لا مجرد ظواهر علمية نظرية وتطبيقية ضيقة،وقد ثبت تاريخيا ان تحقيق اي تقدم اجتماعي اقتصادي وثقافي في اي مجتمع لا يتم بمعزل عن الاستعانة بالعلم النظري والتكنولوجي فالعلم بجانبيه كان ومازال وسيبقي وثيق الصلة بالتقدم الاجتماعي، ويعطي نوري جعفر اول نتيجة حول موضوع التنمية مفادها ان الفرق الرئيسي بين الدول المتقدمة والنامية او المتخلفة يكمن في مدى استخدام كل منها العلم والتكنولوجيا في جوانب حياتها المتعددة،

استنزاف الموارد الطبيعية

كما يولي نوري جعفر اهمية قصوى للبيئة التي تحوي الانسان وان التكنولوجيا المعاصرة اخذت تحتل بالتدريج المركز الاول في علاقات الانسان بالبيئة الحية والجامدة المحيطة به مع ما يرافق ذلك من آثار سلبية مثل تلويث واستنزاف الموارد الطبيعية وتشويه جمال الطبيعة الامر الذي ادى الى اعادة النظر في علاقة الاننسان بالبيئة لضمان بقائه واستمرار تقدمه ذلك لان الطبيعة في الحقيقة هي ام الانسان الرؤوم لا خصمه اللدود وهذا التركيز الاساسي على البيئة واهميتها للانسان من الاول اولويات التنمية الحديثة وقد اشار اليه نوري جعفر قبل اكثر من ٣٠ سنة، الامر الاساسي الهام الذي ذكره نوري جعفر هو فيما يتعلق بالصلة بين العلم النظري والتكنولوجي من جهة وبين المؤسسات التربوية الوثيقة من جهة اخرى. فالمؤسسات التربوية تمد العلم بالعنصر البشري الكفوء والمدرب وتستمد منه معطياته النظرية واجهزته المختبرية والوسائل التعليمية اما العلاقة بين المؤسسات التربوية وبين العلم النظري والتكنولوجي من جهة وبينهما معا وبين التقدم الاقتصادي من جهة ثانية يتمثل بداية في ان المؤسسات التربوية اصبحت في الوقت الحاضر لا بد منها لتكوين القوة البشرية العاملة في مختلف جوانب الحياة وتزويدها بالمعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية التي تستلزمها المهن المختلفة كما ان المؤسسات التربوية تزود العاملين في الصناعة والزراعة وحقل الخدمات العامة في الطب والتعليم والمواصلات بالمعلومات العلمية التي لا يستغني عنها الانسان المتقدم المعاصر وكونها تساهم ايضا بشكل فعال في تكوين المواطن الصالح بمقاييس مجتمعه وهذا يعني ان المؤسسات التربوية تقوم بمهمة مزدوجة او ذات جانبين متلاحمين ومتبادلي الاثر يتعلق اولهما بالجانب الاجتماعي الانساني للفرد ويرتبط الآخر بالجانب المهني الوظيفي المحض.

ويثير نوري جعفر سؤالا مهما مفاده ايهما اسبق من الناحية الزمانية وايهما العامل المؤثر الذي طور صاحبه اهو التقدم العلمي ام الاجتماعي؟ فالآراء الاجتماعية المتقدمة هي الاسبق هذا ما ذهب اليه نوري جعفر وقد اشار نوري جعفر الى هذه القضية في كتابين من كتبه هما : دور المؤسسات التربوية في مجال التنمية الاقتصادية في الوطن العربي والتقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية والتربوية واشار الى هذا الموضوع بنفس المعلومات نصا مما يدلل على ظاهرة التكرار التي اشرنا اليها فيما سبق والتي وقع فيها نوري جعفر الى درجة كبيرة،كما ان الاسبقية في موضوع الافكار الاجتماعية والعلمية كنا قد اشرنا اليها في الفصل الاول من هذا الكتاب.

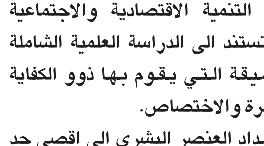
الدراسة العلمية الشاملة

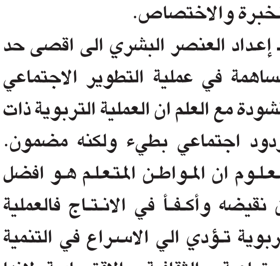
كما ان التقدم العلمي النظري يتفاعل بدوره مع العلوم الانسانية ومع الفكر الاجتماعي العام.

كما ان نوري جعفر يطلق مجموعة من التوصيات لتطوير العمل التربوي في الوطن العربي وذلك لانه الاساس للبناء الاقتصادي وهذه النقاط استخلصناها من فكره يمكن ايجازها بالتالي:/

١ ـ نبذ المفاهيم التربوية العاجزة القديمة التي تعبر عن نفسها في عزل التعليم عن الحياة وخاصة المدرسة عن المجتمع وعزل تربية العقل عن تربية الجسم.

٢ ـ ربط العلم بالفن والادب والعمل المستمر على ادراج عمل المؤسسات التربوية ضمن خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تستند الى الدراسة العلمية الشاملة والعميقة التي يقوم بها ذوو الكفاية والخبرة والاختصاص.





٣ ـ إعداد العنصر البشري الى اقصى حد للمساهمة في عملية التطوير الاجتماعي المنشودة مع العلم ان العملية التربوية ذات مردود اجتماعي بطيء ولكنه مضمون. ومعلوم ان المواطن المتعلم هو افضل من نقيضه وأكفأ في الانتاج فالعملية التربوية تؤدي الي الاسراع في التنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لانها تمدها بالعنصر البشري الكفوء والمدرب. فالتنمية والتربية اذن عمليتان متلاحمتان ومتبادلتا الاثر او هما وجهان مختلفان لعملية اجتماعية واحدة.

٤ ـ التربية بنظر نوري جعفر أشمل من التنمية الاقتصادية وهذه قفزة فكرية للعلامة تدلل بشكل كبير على نظرته البنائية والنهضوية للمجتمع فهو يركز على عملية بناء الانسان التي هي الاساس لبناء العمران،ويعلل هذا الرأي لان التنمية الاقتصادية لا تمس الا جانبا واحدا من جوانب العملية التربوية هو الجانب الكمي وهو جانب مهم دون شك وإن لم يكن الاهم من وجهة نظر نوري جعفر. اما جانب التربية فيمس الجانب الفكري والثقافي وتكون المواطن الصالح بمقياس مجتمعه.

٥ ـ تعديل مناهج الدراسة واساليب التعليم حتى وان كانت تلك اجراءات حاسمة وجذرية.

٦ ـ تغيير جديد في العنصر البشري المتمثل في المعلم الجديد الشاعر بمسؤولياته الاجتماعية والثقافية والقادر على انجازها بفطنة وكفاية من جهة وفي موقع الطالب نفسه في العملية التعليمية من ناحية مساهمته الفعالة في استثمار نشاطه الى حده الاقصى استثمارا نافعا له ولمجتمعه من جهة اخرى

٧ ـ اعادة النظر في كليات التربية ومعاهد اعداد المعلمين وابعاد الموضوعات العقيمة والعناصر العاجزة عنها لاعداد المعلم الكفوء ولاجتذاب افضل العناصر البشرية للعمل في مهنة التعليم لاثرائها وتطويرها ولاعداد جيل مزود بالعلم وبحب الوطن والشاعر بمسؤوليته الاجتماعية او المتكامل الشخصية المتعددة الجوانب والذي يساهم ايضا في تقدم المعرفة العلمية، وفي مجال الادب والفن والعلوم الانسانية.

٨ ـ تهيئة المواطن ليكون قادرا على مواجهة الاحداث بحزم وصرامة لتخطي الصعوبات التي تعترض سبيله مع التعود على التعاون لانجاز العمل المثمر وعلى المثابرة والتطلع دائما الى معالى الامور واحترام النفس والترفع عن الصغائر التي تشين الرجال.

اختيار ناجح

٩ ـ تحبيب مهنة التعليم للشباب بجلب العناصر الكفوءة للالتحاق بكليات التربية ومعاهد اعداد المعلمين وللاحتفاظ بالعناصر الكفوءة الموجودة في الخدمة الفعلية وللحيلولة دون تسربها الى خارج المهنة.

١٠ ـ بث الوعي التربوي في صفوف الناشئة منذ مرحلة الدراسة الثانوية عن طريق الندوات والمناقشات والمؤتمرات لتهيئة اذهان الطلاب وتكوين قدرتهم على اختيار ناجح للمهن التي تلائم كلا منهم في المستقبل وبضمنها مهنة التعليم بالطبع.

عن كتاب نوري جعفر
رجل النهضة والاصلاح



العلامة الدكتور نوري جعفر مع استاذه الفيلسوف الاميركي جون ديوي ١٩٤٩

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2001)
السنة الثامنة
الخميس (30)
كانون الاول 2010

مشروع نوري جعفر الوطني

د. جمال حسن العتابي

تحتل تنمية الثروة العقلية واستثمارها محل الصدارة في جهد العلامة (نوري جعفر)، واصبح هذا الهاجس محور اهتمامه الفكري والعلمي طيلة انشغاله في البحث العلمي الرصين، وانصرف كلياً للكشف عن المواهب والكفاءات وتنميتها وتوجيهها ورعايتها علمياً وتربوياً ومهنياً ،

ذلك لانه يعد العنصر البشري جزءاً لايتجزأ من الثروة الوطنية ، ولأجل ضمان تحقيق هذا الاستثمار على خير وجه وفق منهجية علمية مبرمجة، قدم نوري جعفر المئات من البحوث والدراسات الى المؤسسات العلمية والهيئات التربوية، داخل العراق وخارجه ، لكي تتحول تلك الأفكار الى واقع ملموس يرنو ببصره اليه، ليتحول الى حقيقة ماثلة، امام عينيه، ولأنه كان يعي تماماً الصعوبات الجمة التي كانت تعترض سبل الكشف عن مصادر الابداع واعاقتها، بسبب العقلية المتخلفة السائدة التي تدير او تشرف على ميدان العلم ومؤسساته وكثيراً ما تعرض بسبب منهجه هذا الى المضايقات والملاحقة، او التهميش من قبل السلطات الحاكمة، ودفع بسبب ذلك ثمناً باهظاً فاختار الغربة، ايضاً، وعاش بعيداً عن وطنه، بألم وحسرة وهو يشهد ما أحاط بالوطن من ظلمة وخواء .

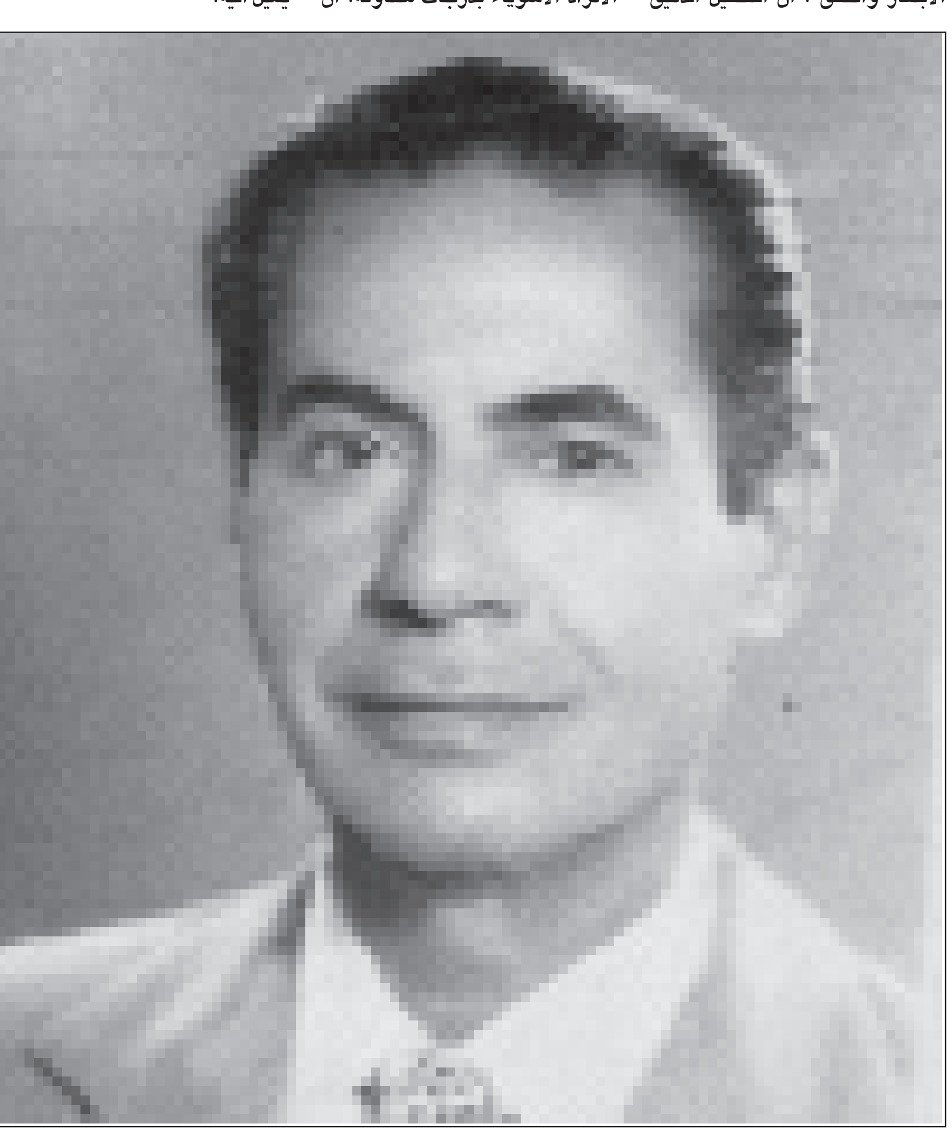
يقول الراحل نوري جعفر: كان املي كبيراً بأن يصبح مشروعنا في المستقبل غير البعيد مثالاً نموذجياً رائعاً يحتذى به في ارجاء البلاد العربية والدول النامية ، وان يتحول ايضاً بصورة تدريجية الى اكاديمية علمية، ينصرف اعضاء الهيئة التدريسية فيها وطلابها الى اجراء ابحاث علمية اصيلة رائدة نظرية وتطبيقية تقنية، ويعني بذلك مشروعه الوطني في اساليب الكشف عن المواهب العلمية وطبيعتها، وكان يحلم بأن يعرض العراق في هذا المشروع منجزاته العلمية النظرية والتكنولوجية في المحافل العلمية الدولية . تتلخص فكرة هذا المشروع بدراسة المواهب وتحديد ماهيتها، والتي يعرفها، انها قدرات عقلية نادرة او فريدة يتصف بها بعض الناس وتعبر عن نفسها عند النضج بأحد الشكلين الاساسيين وهما:

الكشف عن رابطة خفية موجودة بين شيئين ماديين مألوفين لم يكشف عنها احد من قبل . والمواهب برأيه ارتباط عضوي بالخيال الذي هو في جوهره الجانب غير الواقعي في حياة الفرد العقلية ، وان كانت عناصره مستمدة في الأصل من البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الأنسان، معنى هذا ان الخيال يعبر عن نفسه في التأليف او الجمع غير المألوف بين أشياء محسوسة متباعدة عن بعضها في الزمان والمكان لغرض اظهارها باشكال جديدة غير مألوفة ايضاً، وللخيال درجات متباعدة صاعدة ، وكلما كان الخيال أكثر بعداً عن الواقع في الرياضيات او الشعر مثلاً ، كان ارقى .

ومثلما يشير (فاخر عاقل . الابداع وتربيته) وهو يبحث في طبيعة العمل الابداعي وشروطه، الذي يعرفه بـ (الدهشة الفعالة) فانه يضع التخيل او الحدس ، كأحد المعايير المهمة في خلق هذه الدهشة او مقترناً بها .. فالتخيل بنظره تصور امور غير موجودة امام العين مماحدث في الماضي، او سوف يحدث في المستقبل. ومعنى ذلك القدرة على تكوين صور او مفاهيم عقلية لأمور او أشياء لم يختبرها الانسان . أي اننا نستحضر في اذهاننا لا الاشياء الممكنة فحسب بل والاشياء او الحوادث البعيدة عن الواقع الحالي، التي هي ببساطة امور خلقها خيالنا .

ويضيف عاقل: الحق ان مصطلح (التخيل) يعني دوماً تجاوز الحقائق المعطاة ، اضف الى ذلك كله اننا نصف الابداع الفني بالتخيل، ونعني بذلك الابتكار والخلق . ان التحليل الدقيق يرينا، ان التفكير المتخيل هو في الواقع جزء مهم من التفكير ضمن انظمة مغلقة.

أخذ البحث في وظائف الدماغ الحيز الاكبر في انشغالات نوري جعفر العلمية، في ضوء علوم الدماغ الحديثة. وكانت جل طروحاته تنفي وجود قدرات رياضية وغير رياضية نظرية كامنة في طبيعة الفرد، او مسجلة على صفحة المخ ، فمحتوى القدرات العقلية جميعاً ينشأ بالاكتساب البيئي وان الخصائص المخية لاصحاب المواهب لاتؤدي من نفسها، الى انتاج اي شيء الا اذا وجدت الظروف البيئية الملائمة واستثمرها صاحبها الى حدها الاقصى في الموضوع الذي يجنح نحوه منذ سن مبكرة مع العلم ان تلك الخصائص موجودة بشكلها العام لدى جميع الافراد الاسوياء بدرجات متفاوتة. ان القدرات العقلية برأيه ليست قوة فطرية مسجاة بتحجر على صفحة المخ ، بل هي تنشأ وتتطور في مجرى الحياة اليومية، وان الفروق الفردية في هذه القدرات لاتدل على شيء آخر، سوى ان الاشخاص قادرون على القيام بجميع اوجه النشاط العقلي بدرجات متفاوتة وان كل شخص سوي أقدر من غيره (ومن نفسه ايضاً) في مجال معين منه في المجالات الأخرى فبعض الطلاب يتخطى اقرانه في بعض الموضوعات ويتخلف عنهم في موضاعات اخرى، وبامكانه ان يتخطى نفسه في موضوع او أكثر من موضوعات الدراسة ، وان يكون مبدعاً فيه، وهذا يستلزم اتاحة فرص تعليمية واجتماعية ملائمة لجميع الطلاب ليستثمر كل منهم رصيده المخي الى حده الأقصى في الموضوع الذي يميل اليه.



وفي ضوء ما تقدم يؤكد نوري جعفر ضرورة تجهيز الطالب منذ اليوم الأول في تعليمه مادة الرياضيات . كونها الميدان الأكثر واقعية في الكشف عن المواهب . بمواد حسية بصرية كثيرة ومتنوعة، وجعله يتعامل معها تمهيداً لحصول الصور الذهنية والحسية والبصرية والتعامل معها بدل الأشياء المادية.

ويستلزم كذلك تدريب الطلاب على فهم معاني المصطلحات الرياضية الملائمة وتجهيزهم بثروة لغوية رياضية مناسبة وتبسيط صوغ المسائل الحسابية والعناية بدقة التعابير المستخدمة والابتعاد عن استعمال الالفاظ والعبارات الغامضة تفادياً لحصول الالتباس في اذهانهم . وهو بذلك ينبه الى عقم أساليب التعليم في مراحل الدراسة الابتدائية ، وبخاصة في الصفوف الثلاثة الأولى، لذا كثيراً ما كان يدعو الى ان يغير المعلم موقفه السلبي من الطالب الى موقف ايجابي يتسم بالحنان والتوجيه وبعث الثقة بالنفس لنتمكن من التغلب على صعوبات التعلم والدراسة.

ويطرح نوري جعفر اساليبه المتنوعة في رعاية الموهوبين ، منطلقاً بذلك من تجارب عالمية في هذا المجال ، وجد في تطبيقها ، او الافادة منها ، معيناً مهماً في ابتكار اساليب جديدة تتناسب والواقع المحلي ، وتكاد تجمع تلك الاساليب على رعاية الموهوبين من خلال اثراء مفردات منهج الدراسة المعتاد ، باضافة موضوعات جديدة ، او التوسع في موضوعاته او باعتماد اسلوب التعجيل (التسريع) وذلك بالسماح للطالب بالانتقال الى صف اعلى من صفه في اثناء العام الدراسي الواحد. فضلاً عن الرعاية الخاصة بالنشاطات اللاصفية خارج اوقات الدوام المحدد، في ضوء برامج معدة علمياً لهذا الغرض.

ويستلزم تنفيذ هذه الاساليب القيام بمسح شامل للقدرات المتميزة في كل مدارس العراق، وتسجيل الحالات الأكثر وضوحاً في تلك القدرات منها: الرغبة الواضحة في موضوع الرياضيات والفيزياء والميل الملحوظ نحو تعلم واتقان المهارات الاساسية، كذلك القدرة على تعميم المادة الرياضية المتعلمة، والمرونة في اجراء العمليات الرياضية وادراك جوهرها والقدرة على ابتداع اساليب جديدة لحل المسائل الرياضية، والالمام بالعلاقات الرياضية العامة وبأساليب التفكير الرياضي، كذلك القدرة على اختزال خطوات العمل الذهني والميل نحو ادراك العالم الخارجي ادراكاً رياضياً، او تحليل الظواهر البيئية وعلاقاتها تحليلاً رياضياً، والقدرة على ممارسة التفكير بشكل مقلوب، او معكوس اي السير من المجهول والرجوع به الى المعلوم، فضلاً عن الجرأة او الاقدام على اقتحام المجهول. مع ضرورة توفر استقلالية التفكير الرياضي والاتصاف بالمبادرات الشخصية والابتعاد عن التقليد او المحاكاة او التطبيق الميكانيكي على



يقول الراحل نوري جعفر كان املي كبيراً بأن يصبح مشروعنا في المستقبل غير البعيد مثالاً نموذجياً رائعاً يحتذى به في ارجاء البلاد العربية والدول النامية ، وان يتحول ايضاً بصورة تدريجية الى اكاديمية علمية ، ينصرف اعضاء الهيئة التدريسية فيها وطلابها الى اجراء ابحاث علمية اصيلة رائدة نظرية وتطبيقية تقنية ، ويعني بذلك مشروعه الوطني في اساليب الكشف عن المواهب العلمية وطبيعتها ، وكان يحلم بأن يعرض العراق في هذا المشروع منجزاته العلمية النظرية والتكنولوجية في المحافل العلمية الدولية . تتلخص فكرة هذا المشروع بدراسة المواهب وتحديد ماهيتها ،

الدكتور نوري جعفر فكرا وممارسة

ع صبري هادي

اثناء دراسته في اميركا مع استاذه الفيلسوف جون ديوي ١٩٤٩

الحالات الجديدة.

إن احد الاسباب التي دعت نوري جعفر التركيز على حقلي (الرياضيات والفيزياء) في كشوفاته العلمية، هو ايمانه المطلق بان تقدم الشعوب، وتمكنها من بناء حضارتها لم يأتِ عن فراغ، او مجهول، بل اعتمدت كلياً في برامجها وخططها العلمية على ذينيك العلمين، ووضعتهما في ميدان التطبيق الفعلي والعملي.

وهكذا ظلت الدول المتقدمة تتسابق من أجل تحقيق افضل الانجازات بفضل هذين العلمين ، ولابد من الاشارة الى الرأي الذي كان يرجح سر تفوق (الاتحاد السوفيتي) آنذاك، على الولايات المتحدة في مجال غزو الفضاء، ايام الحرب الباردة ، هو تفوق علمائه الرياضيين والفيزيائيين على زملائهم في الدول الأخرى، وربما يمكن القول بتأثر نوري جعفر بالمدرسة (السوفيتية) . اذا صح التعبير .

بعد ان سنحت له الفرصة بعد تموز ١٩٥٨ للاطلاع مباشرة على تلك التجربة ، وهو لايخفي هذه الحقيقة حين قدم لكتابه (طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف) الصادر عام ١٩٧٨ إذ يقول: أتاحت لي ثورة ١٤ تموز فرصة الاطلاع المباشر عن طريق اللغة الانكليزية على منجزات الفكر السوفيتي في علم النفس وفسلجة الجهاز العصبي المركزي، فكانت حصيلة ذلك هذا الجهد الفكري المتواضع. ويكاد يلمس المتتبع لسيرة حياة هذا العالم ملامح جديدة في مواقفه السياسية والاجتماعية فيها انحياز واضح لقضايا شعبه ويتجلى هذا الانحياز في تعاطفه الكامل مع بافلوف حينما يستعرض حياته اذ يقول عنه: ومع ان بافلوف كان رجل علم مختبري تجريبي، إلا أنه مع ذلك لم يعزل نفسه او علمه عن الحياة الاجتماعية التي كانت تجري من حوله فارتبط بالجماهير بكل جوارحه وعواطفه النبيلة واعد العمل الشريف الذي يدر على صاحبه الرزق الحلال اثمن شيء في الدنيا، ومقت البطالة والاتكال وشجب العيش الطفيلي على حساب جهود الآخرين.

وكانت ميوله السياسية العامة، تجري ضمن أطار فلسفة الثوريين الديمقراطيين الروس. فكانت ديمقراطية تقدمية.

ان سيرة حياة نوري جعفر، ومنجزه الفكري والعلمي، تمثل حالة فريدة من العطاء والأصالة، ومنهلاً ثراً للباحثين والدارسين وللثقافة العراقية على وجه الخصوص. فنوري جعفر انسان ومبدع وإرث علمي بحاجة الى اليد التي تعيد له مكانته المتميزة، وترد له اعتباره فحسناً لو فعلت وزارات التعليم العالي والتربية والثقافة بإعادة طبع مؤلفاته ووضعت افكاره في مناهج التعليم موضع التطبيق ، او على الاقل لو اطلق اسمه على احدى الجامعات او القاعات التدريسية او خصص يوم للاحتفاء به او تكريمه وتلك اجراءات لانعتقد انها عسيرة التحقيق لو توفرت النوايا الطيبة لدى (أولي الأمر) في رعاية العلماء، فالبلد الذي لايستذكر رموزه وعلماءه كـ (نوري جعفر ومصطفى جواد وجواد علي وعبد الجبار عبد الله ومهدي المخزومي وعلي جواد الطاهر) والقائمة تطول .. إنه والله لبلد عاق.

هناك خط فاصل وتغيير جذري في تفكير العالم الراحل الدكتور نوري جعفر قبل وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فمن يطلع على مؤلفات الدكتور نوري جعفر قبل ١٤ تموز سيعرف بأن الدكتور لم يكن خاضعا لمنهج معين ، كما لم يتبن اتجاها فكريا واضحا. لقد بدأ مشروعه الثقافي بترجمة كتاب براتراندرسل (السلطة والفرد) عام ١٩٥١. ولم يكن الفيلسوف الانكليزي الشهير (رسل) معروفا في الاوساط الثقافية آنذاك عند ترجمة كتابه المذكور.. أتبعه بكتابه (التربية وفلسفتها) ١٩٥٢ وفيه نقد لاذع للماركسية ثم اصدر كتابه (جون ديوي) عام ١٩٥٤ ثم صدر كتاب (التاريخ مجاله وفلسفته) عام ١٩٥٥ تبعه في الصدور كتاب (العلوم الطبيعية) عام ١٩٥٥ كما الف كل هذه الكتب قبل ١٤ تموز (علي ومناوئوه) و(الصراع بين الامويين والاسلام) و(فلسفة الحكم عند الامام). هذه الكتب اهم ما صدر للدكتور نوري جعفر قبل ١٤ تموز. ومن اللافت للنظر ان المؤلف لم يذكر الكتب الثلاثة الاخيرة ولا كتاب التربية وفلسفتها في ثبت مؤلفاته التي اعتاد رسمها على اغلفة مؤلفاته التي نشرها بعد ثورة ١٤ تموز. وبكل جلاء فان هذه المؤلفات لم تكن متناغمة مع الماركسية التي اقتنع بها بعد ١٤ تموز بل كانت مقارباته في تلك المؤلفات تتناقض وتتقاطع مع الماركسية.

وللحقيقة فان الدكتور نوري جعفر خاض الانتخابات البرلمانية التي اجراها رئيس الوزراء ارشد العمري عام ١٩٥٤ تحت مظلة حزب الامة الاشتراكي الذي كان يترأسه صالح جبر.. وقد ائتلف الدكتور نوري مع عامر حسك في المنطقة الانتخابية التي تشمل قضاء القرنة وناحية المدينة. وكان عامر حسك واحدا من العسكريين الذين سجنوا ثم فصل من الخدمة العسكرية لأنه وقف الى جانب العسكريين الذين التفوا حول رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء المعروف الذي قاد حركة مايس ١٩١٤. وكان عامر حسك شخصية مثقفة ومعروفا باتجاهه القومي وخلف بعض الكتيبات منها كراسه الموسوم بـ (اهواء جنوب العراق). وعلى كل حال فقد خاض كل من الرجلين تلك الانتخابات كما اشرنا سابقا ضمن مرشحي حزب الامة المعروف باتجاهه اليميني وحظيا بتأييد قوي جدا في منطقتهم الانتخابية اضطر السلطات المحلية، بايعاز من الجهات العليا في الدولة الى تزوير الانتخابات عنوة وبقوة ازيز الرصاص لصالح مرشحي حزب الاتحاد الدستوري الذي يتزعمه آنذاك نوري السعيد، لأن ذينكما الحزبين اليمنيين كانا مختلفين في تلك الفترة وأودع كل من الدكتور نوري وزميله عامر حسك الامارة السجن مع العشرات من اتباعهما وخسرا تلك الانتخابات. بعد ذلك حصلت مقابلة بين الدكتور نوري جعفر وارشد العمري رئيس الوزراء وكانت المقابلة متشنجة ومتوترة فصل بعدها نوري جعفر كاستاذ في دار المعلمين العالية (كلية التربية حاليا) لمدة سنة. وقد نشر الدكتور نوري جعفر ما دار بينه وبين رئيس الوزراء من مشادة في جريدة لواء الاستقلال لسان حال حزب الاستقلال الذي كان يترأسه مهدي كبة. وكان ذلك الحزب من الاحزاب المعارضة للنظام آنذاك.. ولم ينشر تلك المقابلة في جريدة الامة لسان حال حزب الامة الذي كان ينتمي اليه الدكتور نوري جعفر ولم نعرف بواعث ذلك. وعمل الدكتور نوري جعفر بعد فصله في المدرسة الاهلية في بغداد ، ومثل هذه المدارس الاهلية كانت منتشرة في عموم العراق حتى انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ حيث الغيت جميع المدارس الاهلية والجمعيات التي تشرف عليها وضمت تلك المدارس الى وزارة التربية. ان الدكتور نجاح هادي كبة في كتابه (الدكتور نوري جعفر) لم يكن دقيقا عندما ذكر ان عمل الدكتور نوري جعفر في المدرسة الجعفرية الاهلية كان عقب فصله بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وبوساطة عبد المهدي المنتفكي. لأن الاخير كان من اقطاب حزب الامة الذي يتزعمه صالح جبر وربما كان الشخص الثاني في سلم قيادة ذلك الحزب وكان نوري جعفر متقاطعا فكريا مع هذه الجهة في هذه الفترة وكما اشرنا اليه سابقا. كما ان الدكتور نجاح هادي كبة غير دقيق عندما وصف صالح جبر متصرفا لكربلاء عام ١٩٥٣ كما ان هناك اضطراباً في تاريخ بعض الكتب التي اصدرها الدكتور نوري جعفر.

بعد ثورة ١٤ تموز انفرط العقد الذي ضم هذين الرجلين، فاصطف عامر حسك الامارة مع القوى القومية وعين مديرا عاما لشرطة محافظة البصرة. وفي العهد العارفي عمل محافظا لكل من مدينة السليمانية والناصرية واحيل إلى التقاعد بعد انقلاب ١٧ تموز وقضى سنيه الاخيرة في قرية الترابة التابعة لقضاء المدينة الحالي وتوفي في منتصف الثمانينيات، وللحق والانصاف ومع اختلاف صاحب هذه السطور مع الرجل في توجهاته السياسية فقد كان الرجل موصوفا بالنبل والنزاهة. اما الدكتور نوري جعفر فقد قضى مغدورا به في حادثة قتل لئيمة ومجرمة في ليبيا كما هو معروف. وكما اسلفنا فقد مال الدكتور نوري جعفر بعد ثورة ١٤ تموز الى الماركسية والى المعطيات المادية يوضحها ويفسرها ويدافع عنها ويسفه مناوئيها، وجعل (بافلوف) عالم النفس والبيولوجيا مركز دراساته وكتبه، واذا ابتعد عن بافلوف قليلا، فغايته كانت الاثبات بمزيد من الحجج والبراهين التي تدعم وترسخ ما اكتشفه ذلك العالم الكبير. وبسبب الاحباطات التي سببتها السياسة للدكتور نوري جعفر فقد عزف الدكتور عن استعمال المصطلحات المثيرة او القريبة من عالم السياسة وافرغ كل جهده الفكري للدفاع عن المفاهيم الفكرية المادية ومفتاح مشروعه كان (بافلوف) وكشوفاته.

ولا ننسى ان الدكتور نوري جعفر قد تعرض الى عنت واضطهاد القوى التي تكره هذا التوجه ومن اولئك من كان صديق الامس وعندما وقع انقلاب ٨ شباط الاسود كان الدكتور نوري جعفر واحدا من ضحاياه فأودع السجن مع الكثير من الجامعيين المثقفين البارزين امثال العالم الجليل الدكتور عبد الجبار عبدالله والدكتور مهدي المخزومي والدكتور علي جواد الطاهر والعلامة طه باقر وعالم الاجتماع عبد الجليل الطاهر وبالمحصلة، فقد تم فصل ما يقارب المئة والخمسين من اولئك الجامعيين من وظائفهم. ومن الغريب ان جل هؤلاء المثقفين اليساريين احتضنتهم المملكة العربية السعودية زمن الملك الراحل فيصل بينما لم تحفل بهم الحكومات العربية التي كانت توصف آنذاك (بالتقدمية) اما الدكتور نوري جعفر فقد طاب له المقام في ليبيا.

وفي السبعينيات من القرن الماضي وبعد قرار اعادة المفصولين الى وظائفهم وصدور قانون عودة اصحاب الكفاءات عاد الدكتور نوري جعفر مع الكثير من اقرانه الى العراق ثم اغترب في ليبيا بعد اعلان الحصار وكانت نهايته المحزنة.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2001)
السنة الثامنة
الخميس (30)
كانون الاول 2010

بورتريت.. د. نوري جعفر

باسم عبد الحميد حمودي

ولد د.نوري جعفر في احدى قرى مدينة القرنة في اسرة فلاحية سنة ١٩١٤ واستطاع اكمال دراسته الاعدادية بتفوق وكان أمله كبيرا في دراسة الطب واستطاع الوصول الى بغداد وهو صبي عن طريق النقل النهري ليقابل سندرسن باشا عميد الكلية الطبية الملكية الذي قابله ولكنه لم يقبله فدخل دار المعلمين العالية وتخرج فيها بتفوق ليحصل على احدى بعثات وزارة المعارف الى الولايات المتحدة حيث درس في معهد التربية العالي هناك على يد كبار اساتذة التربية وفي مقدمتهم الدكتور جون دوي واستكمل نوري جعفر دراسة الدكتوراه سنة ١٩٤٩ ليعود الى وطنه كواحد من ابرز علماء التربية وعلم النفس حيث افاد اثناء دراساته بعد الدكتوراه من ابحاث فايكو تزكي وليونتيف وليوريا واستاذ نظرية الارتباط الشرطي، بافلوف.

اصدر الدكتور نوري جعفر ٣١ كتابا في التربية وعلم النفس والتاريخ وفسلجة الدماغ والفلسفة والفكر والادب، ومن كتبه الشهيرة التاريخ مجاله وفلسفته ١٩٥٩، الفكر طبيعته وتطوره ١٩٧٠، الجهاز العصبي المركزي ١٩٧٠ طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف ١٩٧١، الحب بين القلب والدماغ ١٩٧٨، جذور الابداع لكل الناس ١٩٨٦.

من كتب نوري جعفر الاخرى: جون دوي حياته وفلسفته – العلوم الطبيعية واثارها الحضارية، فلسفة التربية، بين الفلسفة وعلم النفس.

تخرج على يد نوري جعفر الآف الطلبة في معاهد الكليات بغداد وطرابلس وتونس ونيويورك وعندما تقاعد عن عمله الجامعي ببغداد سافر الى ليبيا مدعوا من قبل حكومتها كأستاذ زائر ثم اختير رئيسا لاحدى جامعاتها وقبل ان يباشر عمله استدعته جامعة لندن لالقاء بعض المحاضرات في علوم الابداع وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٩١ ولم يكن يحمل في حقيبته سوى ملابسه القليلة وبعض كتبه عندما ظن سائق السيارة التي قادته الى مطار طرابلس انه يحمل نقودا كثيرة في تلك الحقيبة فعاجله بضربات عديدة على رأسه ادت الى وفاته مباشرة وهو الانسان العالم وغير القادر على حماية نفسه من قسوة البشر، وهكذا ضاعت حياة العلامة نوري جعفر هدرا دون ذنب جناه سوى احترامه لكتبه وعلمه وظن ذلك المجرم بأنه يملك الكثير الذي يحتفظ به في حقيبته المشؤومة.. ظلت الحقيبة مفتوحة بكتبها الى جانب جسد نوري جعفر المهشم الرأس وهو الحريص في كل فترات حياته على احترام الفكر الانساني والباحث في فسلجة دماغه والكاشف عن اسراره باستمرار.

ضاع منا ذلك الشيخ العالم ابن الثالثة والثمانين غريبا مدمى وبقيت آثاره الشاخصة العديدة التي اخترنا منها فصلا من كتابه (اللغة والفكر) الذي اصدره في تونس عام ١٩٧١.

اللـــــغـــــة والـــفـــكـــر

الصلة العضوية بين اللغة والفكر
ظاهرة الهمس ولغة الطفل
هل يذوب الفكر باللغة؟!

د. نوري جعفر

أ: ملاحظات تمهيدية:

لا شك في ان قضية الصلة بين اللغة والفكر لا تقتصر دراستها على العلوم البايولوجية وفي مقدمتها علم تشريح الدماغ وفسلجة المخ، وانما هي تمتد ايضا وبالدرجة نفسها من الاهمية الى العلوم الاجتماعية وفي مقدمتها الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وبخاصة علم النفس الاجتماعي.

ويبدو ان العلوم الاجتماعية هذه لم تقم لحد الان بدراسة جدية تتعلق بموضوع الصلة بين اللغة والفكر بالاستناد الى معطيات العلوم البايولوجية المشار اليها.

كما ان علماء فسلجة المخ لم يستوعبوا بدورهم معطيات العلوم الاجتماعية عند بحثهم علاقة الفكر باللغة. فلا غرو ان وجدنا كلا من الجانبين يدرس هذه الصلة بمعزل عن الاخر مما جعل دراستهم تتصف بالنقص او بعدم الاستيعاب او الشمول.

فقد ضحى علماء الاجتماع بفسلجة المخ لجهلهم اياها، وحدث العكس لدى علماء الفسلجة.. وقد فاتهم جميعا ان هذه الصلة او الرابطة ذات جانبين متلاحمين كما ذكرناهما: الجانب الفسلجي المخي الذي هو اساس اللغة والفكر من ناحية والجانب الاجتماعي الذي يمد كلا منهما بمحتواه من ناحية اخرى.

وقد ثبت بشكل لا يقبل الشك او الجدل انه من غير الممكن ان يكشف الباحث عن جوهر اللغة والفكر دون ان يستوعب الصلة العضوية بينهما والاثر المتبادل الذي يتركه كل منهما في صاحبه من الناحية التطورية في النوع الانساني بأسره وفي مجرى حياة الفرد.. مع العلم ان دراسة العلاقة بين اللغة والفكر من حيث نشوء كل منهما وتطوره عبر الاجيال المتعاقبة وفي مجرى حياة الفرد تدل على انتفاء وجود اعتماد متقابل بين الجذور النشوئية للفكر واللغة، معنى هذا ان الارتباط المتداخل الذي نلاحظه بينهما في الوقت الحاضر لم يكن شرطا مسبقا ضروريا لحدوث التطور التاريخي في ادراك الانسان بل هو نتيجته.

ب:نظريات تفسير صلة اللغة بالفكر:

لو استعرضنا الاتجاهات الفلسفية والسايكولوجية ومحاولات علماء الاجتماع والمختصين بفسلجة المخ المتعلقة بتفسير طبيعة الصلة بين اللغة والفكر لوجدناها تنقسم في ملامحها الكبرى الى ثلاث نظريات هي حسب تسلسلها التاريخي:

اولا: نظرية العزل المطلق بين اللغة والفكر ونكران وجود أي اثر لاحدهما في الاخر.. وهي اقدم النظريات ويمثلها في الوقت الحاضر بيركسون (١٨٥٧-١٩٤١) الفيلسوف الفرنسي ومفادها: انتفاء وجود اية رابطة او علاقة او صلة بين اللغة والفكر وذلك لاحتلافهما من وجهة النظر هذه في الطبيعة والوظيفة. معنى هذا ان اللغة لا تؤثر في الفكر ولا تتأثر به لانها وعاؤه او اداته المادية او الوسيلة التي يعبر بها عن نفسه.. ومثلها في هذا الشأن كمثل الاناء بالنسبة للسائل الذي يملأه او كمثل الطائرة بالنسبة لركابها او كاللباس بالنسبة للجسم. فلدينا فكر نقي او محض او خالص من ناحية ولغة هي الاخرى محضة تجسده او تغلفه وان كانت تختلف عنه جذريا من ناحية اخرى.

يتضح اذاً ان نظرية العزل تحلل او تبضع او تقطع او تجزئ جسم اللغة المتماسك الى عنصرين منعزلين هما اصوات الكلمات عند نطقها ورموزها او اشاراتها المكتوبة من جهة ومعناها او الفكر الذي تحمله او تحتوي عليه من جهة اخرى تماما كما يفعل الكيماوي في مختبره عندما يحلل الماء الى عنصريه المتلاحمين الاوكسجين والهايدروجين، ومعلوم ان الماء غير الاوكسجين وغير الهايدروجين لانه كيان مستقل جديد له خواصه التي تختلف اختلافا جذريا عن خواص كل من الاوكسجين والهايدروجين على انفراد. فالماء سائل وهما غازان.. والماء يستعمل للشرب وللتنظيف وطهي الطعام واطفاء الحريق وللنقل البحري والنهري وسقي المزارع وهما لا يستعملان في اوجه النشاط الانساني المشار إليه. وكذا الحال في اللغة التي تختلف اختلافا جذريا عن الاصوات المنطوق بها وعن الاشارات او الرموز المكتوبة المبهمة او غير ذات المعنى من جهة وعن المعنى او الفكر المعزول عزلا اصطناعيا عن تلك الاصوات والرموز المكتوبة الذي لا سبيل لمعرفته وتجسيده ونقله الا عن طريق الاصوات والرموز المكتوبة من جهة اخرى.

لا شك في ان اصوات الكلمات ورموزها المكتوبة ظواهر مادية محسوسة كما سلف ان ذكرنا، في حين ان معانيها او الافكار التي تحملها او الصور الذهنية التي تعبر عنها او تشير اليها او تدل عليها ظواهر لا مادية. وان الكلمات تفقد جوهرها الفكري اذا اعتبرناها مجرد اصوات او رموز مكتوبة لان اهميتها الفكرية تكمن في انها تنقل ذهن السامع او القارئ الى اشياء اخرى تختلف عن وجودها المادي المحسوس، فالفكر اذا يأخذ منطلقه من معاني الكلمات.



قد ثبت بشكل لا يقبل الشك او الجدل انه من غير الممكن ان يكشف الباحث عن جوهر اللغة والفكر دون ان يستوعب الصلة العضوية بينهما والاثر المتبادل الذي يتركه كل منهما في صاحبه من الناحية التطورية في النوع الانساني بأسره وفي مجرى حياة الفرد.. مع العلم ان دراسة العلاقة بين اللغة والفكر من حيث نشوء كل منهما وتطوره عبر الاجيال المتعاقبة



عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1883)
السنة الثامنة
الخميس (19)
كانون الاول 2010

وبما ان احدى وظائف الكلام الجوهرية كما هو معلوم هي الاتصال الفكري بين الافراد فان هذه الوظيفة تفقد اهميتها عندما تبضع الكلمة الى صوت او رمز مكتوب والى معنى منعزل عنهما. لان هذا التبضيع يعزل الوظيفة الاجتماعية للغة من حيث هي اداة الاتصال الفكري بين افراد المجتمع عن وظيفتها الفكرية الملتحمة بوظيفة الاتصال الاجتماعي ويفكك عرى الروابط العضوية النشوئية او التطورية التي نشأت بينهما.

صحيح ان من ان يتتبع تطور الطفل منذ ولادته يلاحظ انه يمر في اول الامر بمرحلة فكر بدائي غير مرتبط باللغة كما ان لغته هي الاخرى منعزلة عن الفكر وذلك لعدم وجود صلة في الاساس الفسلجي المخي بين محتوى اللغة والفكر لان هذه الصلة التي تحدث بعد ذلك بينهما هي رابطة مكتسبة من البيئة المحيطة تنشأ في مجرى تطور الفرد. وقد حدث شيء مشابه بالنسبة لتأريخ تطور النوع الانساني من الناحية التاريخية، غير ان هذا ينبغي له ألاّ يفسر بأن اللغة والفكر عمليتان منعزلتان عن بعضهما كل الانعزال ولا توجد رابطة عضوية بينهما وان العلاقات التي تحصل بينهما في مجرى نمو الفرد التي حصلت في مجرى نمو النوع الانساني هي علاقات ميكانيكية او آلية، أي ان فقدان الرابطة الفسلجية المخية بينهما لا يعني ان ارتباطهما المكتسب الذي يحصل اثناء نمو الفرد والذي حصل بالفعل في مجرى تاريخ النوع الانساني هو ارتباط ميكانيكي عارض يظهر على هيئة فكر لفظي او فكر معبر عنه بالكلمات المنطوق بها او المكتوبة وان هذا الفكر اللفظي هو عملية اندماج او انصهار او ذوبان تحصل بين الفكر المحض الذي لا يرتبط باللغة في الاساس وبين اللغة الصرفة التي لا علاقة لها في الاصل بهذا الفكر المحض كما ظن اصحاب هذه النظرية.

لقد احدثت نظرية عزل اللغة عن الفكر التي حصرت اللغة بالاصوات المتحدث بها وبالرموز المكتوبة واعتبرت كلا من اللغة والفكر مستقلا عن زميله إضرارا بالغة في دراسة جانب اللغة الصوتي وجانب المعنى: فدرست اصوات الكلمات بمعزل عن معانيها او دلالاتها او ارتباطاتها بالفكر. كما درست من الجهة الثانية تلك المعاني المجردة باعتبارها فكراً لا يرتبط باصوات الكلمات ورموزها المكتوبة، وهذا تقطيع مصطنع لاوصال اللغة المتماسكة يسيء الى طبيعة اللغة بمعناها الانساني الاجتماعي الذي يتضمن كما ذكرنا تلاحم اصوات الكلمات واشاراتها المكتوبة بمعانيها التي لا يمكن عزلها عنها دون الاساءة اليها. وقد نتج عن ذلك العزل المبدئي اللغوي المغلوط الذي اشرنا اليه والذي مفاده ان علم الاصوات علم مستقل في حد ذاته ومنعزل عن علم المعاني وان العلاقة بينهما علاقة آلية خارجية عارضة مؤقتة مما ادى الى دراسة هذين العلمين المتلاحمين او هذا العلم الواحد بجانبيه بالطريقة الكلاسيكية القديمة.

ثانيا: نظرية انصهار او ذوبان الفكر باللغة التي يعتبر ووتسن (١٨٧٨-١٩٥٨) عالم النفس الامريكي اول من صاغها في علم النفس بشكلها الحديث.. وملخصها انتفاء وجود فكر مستقل قائم في حد ذاته بمعزل عن اللغة، أي ان الفكر لغة صامتة يتحدث بها المرء مع نفسه او لغة خفية خالية من الصوت. ولا يرث الفرد عند الولادة شيئا

لقد احدثت نظرية عزل اللغة عن الفكر التي حصرت اللغة بالاصوات المتحدث بها وبالرموز المكتوبة واعتبرت كلا من اللغة والفكر مستقلا عن زميله إضرارا بالغة في دراسة جانب اللغة الصوتي وجانب المعنى: فدرست اصوات الكلمات بمعزل عن معانيها او دلالاتها او ارتباطاتها بالفكر. كما درست من الجهة الثانية تلك المعاني المجردة باعتبارها فكراً لا يرتبط باصوات الكلمات ورموزها المكتوبة،

آخر سوى امكانات لغوية فسلجية تتعلق بجهاز الصوت تعينه على التحدث باللغة مع الاخرين بصوت جهوري وعن طريق الهمس وعلى التحدث مع نفسه بلغة خفية، فإذا تحدث المرء مع نفسه همسا دعونا ذلك التحدث فكرا.

يمر الطفل على ما يقول اصحاب هذه النظرية في مجرى نموه اللغوي بثلاث مراحل هي:

أ-مرحلة الكلام الجهوري الموجه نحو الآخرين او اللغة التي يستمر على استعمالها طوال حياته تحدثا وكتابة وقراءة.

ب-مرحلة الهمس القصيرة الامد التي يضطر فيها الطفل احيانا الى ان يهمس في احدى اذني غيره عندما يريد التعبير عن نفسه. والهمس هو الوجه الاخر من وجهي الكلام الموجه الى الآخرين.

جـ- مرحلة الكلام الخفي الذي يوجهه الطفل الى نفسه في فترة من فترات نموه او مرحلة التحدث مع النفس بلغة صامتة وهي مرحلة نشوء الفكر.

تلك هي ملامح نظرية ذوبان الفكر في اللغة.. وقد ثبت ان حملتها لا يضعون قضية الصلة بين اللغة والفكر في نصابها الصحيح. ويعود سبب ذلك في الاساس الى انهم افترضوا دون وجه حق ان الكلام الخفي او الحديث مع النفس الذي يبدأ عند الطفل في مرحلة متأخرة نسبيا من مراحل نموه ينشأ بصورة اوتوماتيكية في اعقاب تضاؤل تدريجي ينتاب ظاهرة الهمس التي يتحدث بها الطفل مع غيره في مرحلة نموه السابق لا سيما في السنة الثالثة من عمره، في حين ان الهمس في اذن شخص آخر عند التحدث اليه هو احدى وسائل تعبير الطفل عن نفسه كما ان كلامه الجهوري ايضا الذي يسبق ذلك الهمس هما من حيث الجوهر عملية لغوية واحدة وان الاختلافات الموجودة بينهما طفيفة لا تتعدى اسلوب التعبير نفسه، والطفل يلجأ الى اسلوب الهمس في السنة الثالثة من عمره مثلا تحت ضغط الظروف الاجتماعية فيضطر الى ان يوطئ صوته او يهمس لانه يجد صعوبة كبيرة احيانا في التعبير الصريح الذي يحتاج الى جهد كبير يتعذر عليه القيام به في بعض المناسبات، والهمس على ما يبدو هو حلقة انتقالية وسطى بين الكلام الصريح الجهوري الموجه الى الآخرين وبين الكلام الخفي الذي يوجهه المرء الى نفسه.

يبدأ الطفل في اول الامر بالاتصال بالراشدين المحيطين به بكلمة واحدة تتضمن معنى جملة بكاملها ينقلها اليهم ذلك لان فكره ما زال بدائيا بسيطا غير متبلور تكفي الكلمة الواحدة للتعبير عنه. ثم تتطور اللغة عنده مع نموه فيستعمل جملة قصيرة ذات كلمتين فثلاث وهكذا صعدا من الجمل البسيطة الى المعقدة حتى ينتهي به الحال الى استعمال الكلام المتسلسل المترابط المؤلف من عدة جمل، أي انه بعبارة اخرى يسير من الجزء الى الكل. وهذا دليل على تطور الفكر عنده اضافة بالطبع الى تطور لغته وزيادة ثروته الكلامية، وينعكس الترتيب بالنسبة للمعنى لان كلمة الطفل في بادئ الامر تنطوي على معنى جملة بحذافيرها، أي انه هنا يسير من الكل الى الجزء. معنى هذا ان الجانب التعبيري عند الطفل وجانب المعنى يتطوران باتجاهين متعارضين.. يبدأ احدهما بالكل وينتهي بالجزء او بالفرد وينتهي بالجمع، ويسير الثاني بالاتجاه المعاكس، فلا بد اذاً من التمييز بين الجانب اللفظي التعبيري للغة الطفل وبين الجانب المختص بالمعنى، وهذا تفنيد واضح لنظرية انصهار الفكر في اللغة، غير ان هذا التمييز يجب الا يفسر بأنه يعني الانعزال التام بين اللغة والفكر كما ظن اصحاب النظرية الاولى.

لا شك في ان حديث المرء صامتا مع نفسه ينشأ عبر الكلام الجهوري الموجه الى الآخرين، أي انه ليس الكلام السابق ينقصه الصوت كما يزعم اصحاب هذه النظرية، بل هو كلام من نوع جديد له خواصه النوعية التي ينفرد بها مع احتفاظه بجوهر الكلام المتداول بين الناس من ناحية ارتباط الاصوات او الرموز المكتوبة بالفكر، غير انه يتميز عن الكلام الجهوري الذي يتقمص الفكر فيه الاصوات او الرموز المكتوبة ليعبر عن نفسه في ان الاصوات في الكلام الخفي تتلاشى او تزول عندما تؤدي الى نشوء الفكر، أي ان الكلام الخفي او كلام المرء مع نفسه هو في الاساس فكر عبر المعاني الصرفة الخالية من الاصوات اللغوية.

يتطور الكلام الخفي عبر تجمع تغيرات تركيبية ووظيفية تحدث بشكل متدرج. وهو متفرع في الاصل كما ذكرنا من الكلام الجهوري الموجه الى الآخرين. ويحدث معه جنبا الى جنب مع احتفاظه بميزات الكلام الخاصة عموما. ويصبح بدوره اساس الفكر عند الطفل. أي ان كلام المرء مع نفسه موجه الى الذات بدل الموضوع او الى النفس بدل الآخرين.

يتضح اذا ان العلاقة بين الفكر واللغة تفقد وجودها ناهيك عن اهميتها لدى اصحاب هذه النظرية لان الفكر اذا كان لغة صامتة فلا يبقى أي وجود لعلاقته باللغة، اما عند اصحاب نظرية العزل فان العلاقة بين الفكر واللغة تصبح آلية ميكانيكية كما بينا على غرار علاقة الاناء بالسائل الذي يملأه.

فأصحاب نظرية العزل يجردون الفكر من جميع ارتباطاته الحسية المادية باللغة وينظرون الى كل منهما بمعزل تام عن رفيقه. ولكنهم يضطرون تحت الرابطة التي يلاحظونها بينهما بالفعل الى تفسير هذه الرابطة تفسيرا آليا كما ذكرنا باعتبارها صلة عارضة آلية تحصل بين شيئين مختلفين تمام الاختلاف في الطبيعة والوظيفة، غير ان النظريتين معا تستندان برغم تعارضهما الواضح الى افتراض مشترك لا تاريخي يأخذ منطلقه من اللغة والفكر في وضعهما الراهن عند الانسان الحديث دون اهتمام بمجرى تطورهما عبر العصور من حيث النشوء والارتقاء.

ثالثا: نظرية استقلال الفكر عن اللغة استقلالا نسبيا مع تلاحمه العضوي بها، والاثر المتبادل بينهما ويمثلها فايكوتيزكي (١٨٩٦-١٩٣٤) عالم النفس السوفييتي وجون ديوى (١٨٥٩-١٩٥٢) الفيلسوف الامريكي وفحواها: ان اللغة وان كانت غير الفكر من حيث طبيعتها ووظيفتها من ناحية نشوئها التاريخي الا انها مع ذلك ملتحمة به التحاما عضويا غير قابل للعزل في مجرى تطور النوع الانساني وضمن حدود تطور الفرد من المهد الى اللحد. ومع ان هذا الالتحام او الاندماج ليس بذي جذور فسلجية فطرية في الاصل الا ان جذوره تاريخية نشوئية على الصعيدين الفردي والنوعي على حد سواء. فاللغة والفكر جانبان مشتركان ملتحمان ومتكاملان وان كانا متميزين في عملية واحدة او كيان متماسك موحد.

يعبر الفكر عن ظواهر البيئة المحيطة على هيئة صور ذهنية او انطباعات فكرية تحمل المعرفة في شتى فروعها.. معنى هذا ان الفكر يرتبط بالبيئة المحيطة الطبيعية والاجتماعية ارتباطا مباشرا: أي انه يصور الظواهر البيئية او يسجلها مع ارتباطاتها الفعلية الموضوعية، وقوانينها على صفحة المخ ويساعد الانسان على فهمها والسيطرة عليها. اما اللغة فهي في الاساس وسيلة تجسيد الفكر ذاته ونقله وتداوله بين الناس في التحدث والكتابة. ولهذا فانها ترتبط بالبيئة ارتباطا غير مباشر وذلك عن طريق الفكر: أي ان اللغة تعين الانسان على تجسيد فكره او بلورته وصوغه وتداوله.. ولولاها لاستحال ذلك، والفكر بدوره يعين اللغة على الدقة ويثريها بالمصطلحات وهكذا دواليك.

يعبر معنى الكلمة عن رابطة التلاحم العضوي بين الفكر والرموز التي تشير اليه تلفظا وبالكتابة لان المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد.. فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم او أعجم لا يدخل في حيز اللغة. وكذا الحال في الرمز المكتوب، فالمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية تعبيرية لانه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملهما الاصوات والرموز المكتوبة.. فهو من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع.. وهذا يدل على ان معنى الصوت والاشارة المكتوبة ظاهرة فكرية إذا نظرنا الى الكلمة من ناحية كونها اداة التعبير تحدثا وبالكتابة التي تحمل ذلك المعنى الذي لولاه لما اعتبر ذلك الصوت وتلك الاشارة المكتوبة ضمن حدود اللغة. اما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب او صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية اذا نظرنا اليها من حيث كونها الاداة الاجتماعية التي تحمل الفكر وتجسده وتوضحه وتنقله بين الناس. فالكلمة إذا كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبر عن الفكر على هيئة صوت ورمز مكتوب، وهذا هو جوهر اللغة واصغر وحدة في بنائها، أي ان الكلمة بالتعبير الكيمياوي جزيء (Moleccles) اللغة وهي كجزيء الماء الذي هو اصغر وحدة متماسكة فيه مؤلفة من الهيدروجين والاوكسجين وكالخلية في حالة النبات والحيوان (مؤلفة من النواة السايتوبلازم بالدرجة الاولى) وكالذرة بالنسبة للجماد (مؤلفة من الجزيئات (particles) والكلمة تجريد وتعميم من حيث معناها، أي ان المعنى جزء لا يتجزأ من الكلمة. والمعنى فكر في الوقت نفسه.

فالكلمة فكر ملتحم بصوت يشير اليه ورمز مكتوب يدل عليه. وان الاتصال الفكري الحقيقي الذي يحدث بين الناس يستلزم المعنى التام كما يستلزم الاصوات والرموز المدونة التي تجسده وهذا الذي تفتقر اليه الحيوانات لانها تنقل الى بعضها الاصوات البدائية المبهمة، والحركات الجسمية التي تعبر عن حالاتها الانفعالية، فالطائر الذي يخفق بجناحيه اثناء الذعر ويصيح لا يقوم بنقل المعرفة الى زملائه بل هو يعبر عن مخاوفة، كما ان العلاقة بين الفكر واللغة تنتفي ايضا عند كثير من الفنانين والشعراء لاستعمالها أداة للتعبير عن مشاعرهم بصرف النظر عن صدقها او كذبها.

يتضح هذا عند كبار الشعراء العرب على هيئة مسخ للحقائق لغرض المبالغة في المدح او القدح، ولا بد من التنبيه هنا الى ان قولنا هذا ينبغي ألاّ يفسر بأنه يحط من منزلة الشعر او مكانته في حياة الانسان او انه يجعل دراسته ثانوية الاهمية بالنسبة للعلوم الطبيعية التي تقع وإياه على طرفي نقيض، ذلك لان جميع فروع المعرفة الانسانية ابتداء من الشعر والفنون الرفيعة الاخرى صعدا الى الرياضيات عبر العلوم الاجتماعية والطبيعية اطراف متكاملة في ثقافة انسانية مشتركة، عندئذ لا ينعزل الشعر الذي هو سجل المشاعر الانسانية عن العلوم الطبيعية التي هي اساس الحضارة المادية الحديثة بل يتمم كل منهما صاحبه.

نوري جعفر وقراءة التاريخ

دراســـــة نــقــديــة

ياسر جاسم قاسم

حاول الدكتور نوري جعفر أن يضع أسساً مهمة لقراءة التاريخ انطلاقا من مجاله وفلسفته وبموضوعية سيطرت على أجزاء كثيرة من كتاباته، وقد حلل نوري جعفر التاريخ بكتاب نستطيع أن نقول فيه انه سياحة فكرية يسبح بها الفكر بين التراث والمعاصرة، وهو أيضا وسيلة مهمة لتقويم التاريخ انطلاقاً لتقويم الحاضر ثم المستقبل وهذا يدل على عمق الفكر الذي يحمله هذا الرجل حيث يعالج الأفكار الحديثة انطلاقاً من عمق التاريخ

وكعادته في أكثر مؤلفاته تبدو على كتابة التاريخ مجاله وفلسفته الموسوعية فهو يجمع فضلا عن فلسفة التاريخ الجغرافية والبيولوجي والأدب واللغة والتربية وعلم النفس، والدكتور نوري جعفر يبدأ بتعريف التاريخ من كتاب مختار الصحاح وينطلق إلى دراسة نظريات التاريخ ويؤرخ لعمر الأرض بأسلوب رياضي كبير معتمدا على الأساس الجيولوجي، حيث ينقل توصل العلماء المعاصرين إلى معرفة عمر الأرض عن طريق دراسة أعمار الصخور المختلفة وحساب تحول بعض العناصر الفيزيائية إلى بعض آخر، فعنصر اليورانيوم والثوريوم مثلا ذراتهما أثقل الذرات المعروفة يمكن ان يتحول كل منهما الى رصاص حسب النسبتين الآتيتين :

يتحول غرام واحد من الاورانيوم الى ١/٧٦٠٠٠٠٠٠٠٠ غرام من الرصاص سنويا والغرام الواحد من الثوريوم ١/٢٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في العام الواحد وبهذه الطريقة يصبح من الممكن التوصل الى معرفة أعمار الصخور الأرضية ذات الاورانيوم والثوريوم بواسطة حساب ما بها من رصاص متحول، فتوصل الباحثون في الوقت الحاضر الى حساب أعمار متحجرات تكونت قبل زهاء خمسمائة مليون سنة وقد قسموها إلى الأقسام الثلاثة الآتية:

أ- عصر الحياة القديمة paleozoie الذي استمر حوالي ٣٠٠ مليون سنة .

ب- عصر الحياة الوسطى mesozoie الذي استمر حوالي ١٣٥مليون سنة .

ت- عصر الحياة الحديثة cenzoie الذي استمر ٦٥مليون سنة.

وهنا نتوقف عند هذه المعلومات الخطيرة حول عمر الأرض حيث نستطيع ان نقول ان الدكتور نوري جعفر من الأوائل الذين استندوا إلى قراءة التاريخ للأرض استنادا الى أرقام ونسب رياضية وهذا إن دل على شيء إنما يدل على قدرته على ربط العلوم بعضها ببعض وهنا نرى الجيولوجيا أيضا بأثرها واضحة تماما ثم ينتقل الى مسألة مهمة في التاريخ الاجتماعي للإنسان ، حيث يقرر انه اقل سعه واحدث تكوينا من تاريخ الكون ولا يتجاوز عمره خمسة آلاف سنة، ويمتاز هذا التاريخ على الرغم من حداثة تكوينه بظهور الحضارات البشرية القديمة والحديثة تلك التي أدت الى هذا التقدم الواضح في جميع مناحي الحياة الاجتماعية للجنس البشري .

ان عرضه لبعض أسس التاريخ او لأسس قراءة التاريخ نراها بعض الأحيان تنطلق من تقريرات لاشك في أهميتها ،ولكنها لا ترقى لان تكون أساسا هاما لقراءة التاريخ ومنها قوله ((وتستعمل كلمة تاريخ أحيانا لتدل على ما استطاع الإنسان ان يعرفه من الحوادث الماضية طبيعية او اجتماعية ولا يشترط في هذه المعرفة أن تكون مدونة تدوينا خطيا بل يشمل بالإضافة إلى ما هو مدون على الورق او الجلد او الجدران من آثار بشتى اللغات ومختلف الرموز ،وجميع البقايا التاريخية للمعابد والكهوف والجسور والأبنية)) إن هذه الاستنادات لقراءة التاريخ تعد استنادات معروفة سابقا ولم يقدم بها شيئا جديدا ولكنه من خلال هذه القراءات يود أن يبين بان التاريخ بهذا المعنى يتسع مجاله باستمرار كلما اتسعت المعرفة التاريخية عند الإنسان من حيث اكتشافه لوقائع لم يستطع أسلافه اكتشافها من جهة ومن حيث اتساع موضوعه مع الزمن ؛نتيجة لوقوع حوادث جديدة من جهة أخرى ويربط الدكتور نوري جعفر التاريخ بكل العلوم الأخرى إنسانية كانت أو علمية وهذا هو سر تميزه بان يجعل العلوم جميعها مرتبطة مع بعضها البعض، فتاريخ الشمس مثلا يمكن ان يدرس ضمن موضوع علم الفلك وتاريخ الأرض ضمن موضوع الجيولوجي وتاريخ الحياة ضمن علم الأحياء ،هذا من جهة ومن جهة ثانية فان التاريخ من الناحية الاجتماعية يمكن أن ينقسم إلى أقسام كثيرة فتارة يقسم حسب زمانه إلى تاريخ قديم ومتوسط وحديث وطورا حسب موضوعه إلى تاريخ سياسي وعسكري وثقافي وطورا يقسم الى تاريخ للعرب والألمان والفرنسيين وكل قسم من الأقسام الآنفة الذكر يمكن ان يصنف بدوره إلى أصناف أخرى وهذه بدورها إلى أصناف أخرى وهكذا وكلما اتسعت المعرفة الإنسانية للتاريخ وتوغل الاختصاص زاد عدد تلك الأقسام وحسب الشكل الآتي:

حيث يتضح من الشكل أعلاه انه بازدياد المعرفة الإنسانية للتاريخ سوف يزداد عدد أقسام التاريخ حيث إذا كانت نسبة ازدياد المعرفة الإنسانية ٢٪ ستكون أقسام التاريخ مزادة بنسبة ٣٪ على سبيل المثال فقط ،اما أهم العوامل التي تحول دون توخي الدقة في البحث التاريخي فيمكن إجمالها على الوجه الآتي:

١- تشبع كثير من الحوادث التاريخية بعوامل دينية أو مذهبية أو عنصرية أو قومية تشبعا تختلف درجته باختلاف نوع الحادثة التاريخية من جهة، وأهميتها بالنسبة للباحث من جهة أخرى.

وهذه النقطة تثير الصعوبات في توخي الدقة عند البحث في الحوادث التاريخية فكيف يضمن الباحث نفسه في عدم الانجرار إلى مذهبيته في تناوله مثلا المذهب الأخرى وبالنتيجة فنحن أمام كم هائل من الباحثين التاريخيين الذين لم يستطيعوا أن يبتعدوا عن مذهبيتهم، فترى احدهم يتكلم مثلا عن المذهب السني وهو ينتسب إلى المذهب الزيدي ينال منهم من حيث لا يشعر بشكل تاريخي، فعلى المؤرخ ان يبتعد عن مذهبيته عند تناوله القضايا التاريخية.

٢- الصعوبة الأخرى في ان البحث في الحوادث التاريخية يكون في العادة ممزوجا بميل متصل بالاستحسان او الاستقباح أي ان الحوادث التاريخية لا ينظر إليها الإنسان نظرة موضوعية مجردة وإنما هو حتى في محاولته تجنب التحيز قد يستحسن وقوع بعضها فينعته بنعوت رقيقة ويستقبح وقوع بعض آخر فيخلع بعض الصفات المستهجنة عليه، يقول الدكتور نوري إن الكيميائي مثلا لا يستحسن اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأوكسجين عند تكوين الماء ولا يستهجنه ولا ينتقد الاوكسجين مثلا في سلوكه العام كعدم تفاعله مع مواد كيميائية اخرى او مساعدته على الاشتعال ....الخ.

ان الكيميائي لا يفعل ذلك لان دراسته موضوعية، وبعبارة اخرى لا تدخل عواطف الكيميائي في تقرير نتائج بحثه في حين ان المشتغل في القضايا التاريخية لا يستطيع التجرد عن عواطفه مطلقا وان جل ما يستطيع أن يفعله اذا ما أراد ان يتوخى النزاهة والدقة في بحثه هو ان يسيطر على بعض عواطفه فيخفف من حدتها.

٣- الصعوبة الثالثة المتعلقة بافتقار المؤرخ الى الدقة في البحث ناتجة عن ان الباحثين في الحوادث التاريخية يحاولون التوصل الى ما يسمونه بطبيعة الاشياء. ولقد حاول عبثا قبلهم زملاؤهم الباحثون في الظواهر الطبيعية ولم يتقدم البحث الدقيق في مجال العلم كما سنشير الى ذلك إلا بعد ان خلع انصاره عن انفسهم فكرة البحث في طبائع الاشياء واهتموا عوضا عن ذلك بالبحث في علاقاتها ومظاهر سلوكها .

٤- الصعوبة الرابعة تتصل بتعقد الظواهر التاريخية وتشابكها من جهة وخضوع الباحث لها لا خضوعها له من جهة ثانية فالعالم الطبيعي في بحثه في الظواهر الطبيعية ((فيزيائية او كيميائية)) يبحث في امور يستطيع السيطرة عليها فيخضعها لمشيئته في حين ان المؤرخ يحاول دخول قوى هو خاضع لها. وهنا يقرر الدكتور نوري جعفر ان الباحث في الظواهر الطبيعية يستطيع تجريد تلك الحوادث عن بعضها وإحداث تغييرات كبيرة في علاقاتها وسلوكها. أما الباحث في الظواهر التاريخية فليس باستطاعته ان يفعل ذلك نظرا لتداخل تلك العوامل تداخلا يستحيل معه فصلها عن بعضها، فاذا سهل على الكيميائي ان يحلل الماء في المختبر الى عناصره الاولى فانه يستحيل على المؤرخ ان يعزل اثر العامل الديني عن اثر العامل الاقتصادي او الجنسي تقرير سلوك الافراد او الجماعات .

٥- والصعوبة الخامسة ناتجة من ان المؤرخ في العادة ينتقي من الحوادث التاريخية تلك التي تلائمه وتتفق هي ووجهة نظره وهنا يستند نوري جعفر إلى بعض العوامل التي تحول بين المؤرخ وبين الدقة والنزاهة في البحث، جاء في المقدمة ص٩-١٠:

اعلم إن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضي من الأمم في أخلاقهم



الصعوبة الثالثة المتعلقة بافتقار المؤرخ الى الدقة في البحث ناتجة عن ان الباحثين في الحوادث التاريخية يحاولون التوصل الى ما يسمونه بطبيعة الاشياء، ولقد حاول عبثاً قبلهم زملاؤهم الباحثون في الظواهر الطبيعية ولم يتقدم البحث الدقيق في مجال العلم كما سنشير الى ذلك إلا بعد ان خلع انصاره عن انفسهم فكرة البحث في طبائع الاشياء واهتموا عوضا عن ذلك بالبحث في علاقاتها ومظاهر سلوكها .

والأنبياء في سيرهم والملوك عن دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين من المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط.

وهنا في دراسة الدكتور نوري جعفر للتاريخ وأخذه بهذه التفاصيل إنما يقدم دراسة موضوعية لأهمية الوقوف على التاريخ بشكل يهم بوضع أسس لقراءته ودراسته تكون قادرة على استلهامه ؛لوضع أساس حداثوي؛ لان التاريخ أساس مهم لوضع إنساني متكامل وبالتالي فان موضوعي النقد الداخلي والخارجي لمصادر التاريخ حيث يتناول النقد الخارجي البحث في صحة المصادر ومدى الثقة التاريخية في الاعتماد عليه، ولكي يكون النقد الخارجي مستوفيا شروطه الأساس يلجأ المؤرخ في العادة الى محاولة الإجابة عن أسئلة كثيرة ومنها:

هل هذا المصدر أساسي هل هو ثانوي؟ وإذا كان المصدر أساسيا هل طرأ عليه شيء من التغيير؟ هل النسخة المطبوعة (في حالة وجودها) هي النسخة المخطوطة بخط المؤلف نفسه أم إنها مطبوعة عن نسخة أخرى ؟ وهل النسخة المخطوطة هي بخط المؤلف نفسه؟ كيف نعرف ذلك؟ وغيرها من الأسئلة المهمة.

أما النقد الداخلي internal or higher eritieism فيبحث في محتويات المصدر بعد تقرير صحته ولكي يكون مستوفيا شروطه الأساسية يحاول المؤرخ الإجابة عن أسئلة كثيرة ومنها : ما ميول المؤرخ الدينية أو المذهبية أو السياسية. ؟ هل المؤرخ يصف الحوادث التاريخية وصفا دقيقا؟ أم انه يصدر أحكاما معينة عليها او على بعضها ؟ لماذا اصدر المؤرخ حكما معينا في قضية معينة ؟ هل المؤرخ منصف في حكمه هذا؟ هل المؤرخ مؤمن بما يقول؟ هل كان المؤرخ في وضع يساعده على المعرفة الصحيحة ؟ وغيرها من الأسئلة المهمة التي تسهم في تحديد نوعية ما يكتب من التاريخ ومدى صحته؟ والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا كل هذا الاهتمام بدراسة التاريخ والبحث فيه كعلم مستقل؟

وللجواب إن الدكتور نوري جعفر يعمل بحداثوية عالية يستلهمها حتى من التاريخ، فكأن الدكتور نوري جعفر يقرر انه لا حداثة على المستوى الفكري دون أن ندرس التاريخ من جذوره ونمحصه تمحيصا دقيقا قادرين في النتيجة على ان نبين مساوئه ومحاسنه، بالنتيجة سنصنع تاريخا نقف عليه وبالنتيجة لا حداثة فكرية دون ان نبين ما نحن عليه من مساوئ التاريخ التي إلى الآن ما انفكت عن مخيلة الناس وصنعت منهم في بعض الأحيان وحوشا يقتل بعضهم بعضا. اعتقد ان كل معاناتنا اليوم هي بسبب ما ورثناه من تاريخ في هذا المجال وبالتالي يركز الدكتور في تناوله لعلم التاريخ على كل الجوانب الخفية والظاهرة في دراسته للتاريخ وتصل الدقة لدى الدكتور نوري جعفر إلى انه يشير الى مسالة الإغراق في النقد بنوعيه كثيرا ما يؤدي الى عكس الغاية من استعماله فيصبح عقبة كؤودا في سبيل استجلاء بعض الحقائق التاريخية بدلا من أن يكون عاملا من العوامل المساعدة على التحليل العلمي الدقيق. يضاف إلى ذلك أن لقسم من الكتاب والمؤرخين براعة خاصة في وضع كثير من الأوهام والأكاذيب بشكل يجعلها تبدو كأنها حقائق كما إن لبعضهم القدرة على تقمص شخصية قسم من المؤرخين المعروفين وتقليد أسلوبه في الكتابة والتعبير الأمر الذي يجعل أمر التفريق بين الغث والسمين في هذا المضمار صعبا ان لم يكن مستحيلا أما تفسير التاريخ وفلسفته فهو موضوع مهم يتطرق إليه الدكتور نوري جعفر فهناك أربعة تفاسير للتاريخ وهي :

١- التفسير الجغرافي للتاريخ.
٢- التفسير الروحي للتاريخ.
٣- التفسير المادي للتاريخ .
٤- التفسير الدوري للتاريخ.

ولو تطرقنا إلى التفسير المادي للتاريخ والذي يدعى من الناحية الفسفية بالمادية التاريخية حيث ان القوانين التي وضعها ماركس لتفسير الكون وهي :

١- القانون ذو المظاهر الثلاثة :التناقض والتاثير المتداخل ووحدة المتناقضات .
٢- قانون التحول الكمي الى تحول نوعي وبالعكس:
٣- قانون نفي النفي.

ثم يناقش نوري جعفر هذه القوانين مناقشة موضوعية فيقول ان دعاة التفسير المادي للتاريخ فرضوا ان الشيوعية لا تتحقق إلا بعد ان تسبقها ثورة طبقية ينتقل فيها الحكم من الطبقة البرجوازية الى طبقة العمال التي يسود فيها المبدأ الاقتصادي القائل من كل حسب قدرته إلى كل حسب إنتاجه ولكنهم لم يحددوا ما يقصدونه بكلمتين ((قدرته))و((إنتاجه)) ولم يبينوا كذلك كيف تقاس قدرة الشخص ويقدر إنتاجه وهنا إذا علمنا بصورة عامة ان القدرة وبالتالي الإنتاج المنبثق عنها يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قدرة جسمية وفكرية وفنية .فكيف إذن تقاس تلك القدرات وتقدر كل منها حسب قدرها بالموازنة لبعضها؟ ثم إن الإنتاج نفسه يمكن ان يكون معنويا (أي ليس له وجود مادي مستقل بذاته) كما هو الحال بالشعر والموسيقى فكيف تقدر قيمته بالنسبة للإنتاج الجسمي فهل يقاس الإنتاج بكميته ام بنوعه؟ ومن هو الحكم الفصل في أمثال هذه الأمور؟

وهنا مناقشة الدكتور نوري جعفر مستفيضة لهذا الموضوع بحيث يصل الى تشخيص عملية الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية وكيف ان دعاة التفسير المادي لم يذكروا لنا كيف يتم الانتقال من مرحلة الاشتراكية الى الشيوعية وهنا يدعونا الى نتساءل ونقول ((يتم ذلك عن طريق الثورة على حكام طبقة البوليتارية ام ان هؤلاء الحكام يتنازلون من أنفسهم عن سلطتهم؟ واذا صح الفرض الاول فهل يبرر أصحاب نظرية التفسير المادي للتاريخ الثورة على حكام الطبقة البروليتارية ؟ ومن يقوم



إن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضي من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين من المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار

بذلك؟ واذا صح الفرض الثاني فان حدوث ذلك مستحيل حسب منطوق المذهب الديالكتيكي لان الحاكمين يحاولون التمسك والاستعانة بجميع الوسائل الممكنة للمحافظة على الوضع القائم واحباط جميع المحاولات التي تتضمن الانتقاض عليه، واذا صح الفرض وتنازل حكام البروليتارية عن امتيازاتهم بمحض ارادتهم فان مفعول الطريقة الديالكتيكية يزول وهو امر لا يسلم به دعاة هذا المذهب فنحن،اذن في حلقة مفرغة لا يمكن الخلاص منها ويتناول ايضا مسألة التحيز في التاريخ حيث يشخص مجالات ثلاثة لاسباب الاختلاف الذي يظهر بين المؤرخين بدرجات متفاوتة وهي:

١- طبيعة العصر الذي يعيش المؤرخ فيه.
٢- طبيعة المجتمع الذي ينتمي اليه.
٣- عوامل شخصية مزاجية تتصل بكل مؤرخ.

وهنا نستدل على دقة نوري جعفر من ناحية دراسة التاريخ بتشخيصه هذه العوامل الثلاث ابتداء من طبيعة العصر وطبيعة المجتمع والعوامل المزاجية والتي تنتج بالنهاية اسلوبا مغايرا في قراءة التاريخ من شخص لآخر والاختلاف في الرأي يحصل بين مؤرخ وآخر يعيشان في الزمان نفسه والمكان ذاته او في المكان نفسه ولكن في زمانين مختلفين او في زمن واحد ومكانين مختلفين او في مكانين مختلفين وزمانين مختلفين ويصدق الشيء نفسه على الاتفاق في الرأي ويعود سبب هذا الاتفاق وذلك الاختلاف على ما نرى الى نوع المسلمات الفكرية والعاطفية عند كل منهما واعني بالمسلمات الفكرية والعاطفية ما ينطوي عليه الانسان من معتقدات لا تقبل عنده الشك او الجدل كمبدا التوحيد عند المسلمين مثلا وكمبدأ التثليث عند المسيحيين وما شابه هذا وذاك مما نستطيع ان نسمي منه الكثير فتتفق احكامهما التاريخية اذا استندت الى مسلمات فكرية وعاطفية واحدة وتختلف في حالة اختلاف المسلمات التي تستند اليها، فلا غرابة ان رأينا مؤرخا معينا يتفق مع مؤرخ آخر في بعض القضايا ويختلف عنه في بعض اخر وان عاصره في الزمان والمكان او في احدهما او اختلف عنه في كليهما.

ومن الطريف يذكر نوري جعفر رحمه الله ان كل مؤرخ يعتبر ان المسلمات التي يستند اليها في احكامه التاريخية هي الاساس السليم لاختيار وجاهة القضايا التاريخية التي يبحثها وهنا لو تكلمنا عن الاختلاف الذي يظهر بين المؤرخين وهو بدرجات متفاوته فمثلا طبيعة العصر فالمؤرخ الذي يعيش في هذا العصر يختلف هو والمؤرخ الذي عاش في العصر العباسي عندما يتعرض للبحث في طبيعة الاقاليم وفي جغرافية دولة معينة وفي كثير من المسلمات العلمية الحديثة هذا من ناحية روح العصر في الجوانب العلمية اما طبيعة المجتمع الذي ينتمي اليه المؤرخ فيكفي للدلالة على ذلك ان نوازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسلمون في الماضي والحاضر على الحروب الصليبية من حيث اسبابها ونتائجها ومن حيث اهميتها التاريخية وتحديد المسؤولية فيها على احد الطرفين المتنازعين وبين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسيحيون القدامى والمحدثون .

اما العوامل المزاجية والشخصية فيتجلى اثرها في علاقات الافراد اليومية وفي سلوكهم وانماط تفكيرهم بقدر ما يظهر ذلك في احكامهم التاريخية وهنا يشخص الداء الرئيسي للمؤرخين في هذا المجال فيقول ان اختلاف الاشخاص في احكامهم المتصلة بجميع مجالات الحياة راجع الى اختلاف مسلماتهم الفكرية والعاطفية واننا بهذا التشخيص نقرر ان هذا الاختلاف والذي منشأه عاطفي سيكون خطير على مسيرة التأريخ وبالتال فالتشخيص التاريخي للمؤرخ يجب ان يكون بعيد عن المسلمات الفكرية والعاطفية والنتيجة سيكون التاريخ الذي يكتبه مبنيا على اسس سليمة ومهمة.وهنا نشير الى فرق اساسي ومهم بين الباحث في العلوم التاريخية والباحث في العلوم الطبيعية حيث ان الباحث الطبيعي اكثر قدرة على البحث الموضوعي المجرد عن النزعات والاهواء (شخصية كانت ام قومية) من المؤرخ والمؤرخ بدوره يختلف مدى تحزبه في بحثه باختلاف الموضوع الذي يعالجه وكلما كان موضوع البحث شديد الصلة بعقائده في الدين والسياسة اصبح من المتعذر جدا عليه ان يبحثه بحثا علميا او قريبا من ذلك والعكس صحيح كذلك .

والاشارة الغاية في الاهمية ان تدريس التاريخ يختلف باختلاف البيئة الحاضنة للتدريس وهنا يشير نوري جعفر الى تدريس التاريخ القومي في العراق وبخاصة في مرحلة التعليم الثانوي فقد بقي محافظا على اسلوبه القديم من حيث مادته ومن حيث اهداف تدريسه وطريقة ذلك التدريس فما زالت مادته على وجه العموم محصورة في النواحي السياسية والعسكرية ولم تمسس نواحي التاريخ الاخرى (الاقتصادية والثقافية والعلمية) الا مسا خفيفا يجعلها ثانوية الاهمية بنظر الطالب والمدرس اما اهداف تدريس التاريخ فما زال يكتنفها الغموض والابهام وتكون درجة هذا الغموض اكثر عند الطالب منها عند المدرس ولا تخرج اهداف تدريس التاريخ عند كثير من المدرسين من ان تكون تكملة تدريس المادة المقررة في المنهج لغرض نجاح الطلاب في اخر الامتحان .

كما ان هناك مسالة اخرى غاية في الاهمية في تدريس التاريخ وهي خطورة الاعتقاد بان الغاية من تدريسه هي خلق الشعور بالعزة القومية والتغني بامجاد السلف غير ان طرائق تدريسهم مع مزيد الاسف كثيرا ما تعرقل تحقيق ذلك الهدف وتخلق الجو بشكل ينقسم فيه الطلاب على انفسهم يكون انقسامهم دينيا احيانا ومذهبيا ثانية وعنصرية احيانا ثالثة وسياسيا احيانا رابعه أي ان الطلاب في بعض دروس التاريخ يشعرون بفجوة كبيرة تباعد بينهم من الناحية الدينية كما يحدث بين المسلمين والمسيحيين في تدريس الحروب الصليبية مثلا او من الناحية المذهبية كما يحصل بين المسلمين انفسهم في قضايا السنة والشيعه او عنصرية كما يحصل بين الاكراد والعرب وهنا يجب الانتباه الى تدريس التاريخ ومحاولة مراجعة هذه المسالة المهمة وكم حري بالمسؤولين اليوم على العملية التربوية ان يدرسوا كيفية تدريس التاريخ وبصورة عاجلة أي ان يعيدوا النظر بالمناهج الدراسية المقررة وذلك للنهوض بالطالب وبوعيه وبشكل صحيح قادر على مواكبة التطور العالمي.



عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2001)
السنة الثا
الخميس
كانون

الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي

أصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف

تناول الدكتور نوري جعفر في هذا الكتاب- بالدرجة الاولى والاهم- ظاهرة الاصالة في شعر المتنبي. بمعنى ان الغرض الاساسي من الكتاب هو: إحاطة اللثام عن جانب واحد من جوانب شعر المتنبي المتعددة. أما الجوانب الاخرى المتعددة، فنظر اليها من ناحية ارتباطها بأصالة شعره، من اجل إعطاء القارئ صورة متكاملة عن المتنبي، ومنزلة شعره في الشعر العربي.

ان الاصالة في شعر المتنبي- كما يذهب الباحث- تعبر عن نفسها في الصور الشعرية الخيالية التي تبتعد عن الواقع المحسوس بعداً يكاد يكون مطلقاً في بعض الاحيان، او تمسخه احيانا اخرى.

وتظهر أصالة شعره في وصف الطبيعة (الحية والجامدة)، كما تظهر، ايضاً، في وصفه الاشخاص في حالة المدح والقدح على حد سواء، بصرف النظر عما اذا كان المتنبي محقا في ذلك ام غير محق فيه، وبصرف النظر، ايضاً، عما اذا كان الشخص الممدوح او المهجو يستحق ذلك او لا يستحقه بنظر الاخرين.

لقد ثبت للباحث انه كلما كان المتنبي عنيفاً في التعبير عن حبه او بغضه لهذا الشخص او ذلك.. كان عنفه هذا اكثر صدقاً واكثر دقة في التعبير عن مكوناته الفسلجية الخاصة وظروفه الاجتماعية. ويتجلى ذلك في الومضات او اللمحات الخاطفة المؤتلقة التي تنتشر في اثناء شعره، والتي تتناقض مع الواقع الحسي؛ ولكنها تثريه وترفعه الى مستوى اعلى من الاناقة، وتعيد صوغه بإبداع: وهي كثيرة ومثبوتة- كما يذهب الباحث- في اثناء موضوعاته الشعرية الاخرى. والصور الشعرية المترفة التي تعبر فيها اصالة شعر المتنبي عن نفسها (او التي هي اصالته بعبارة اخرى)، وجدها الباحث معبراً عنها (الا في حالة المدح والهجاء) بكلمات رقيقة مترفة انيقة لطيفة المزاج تنسجم معها.

لقد وجد الباحث ان المتنبي عبر عن بعض خلجات النفس البشرية تعبيراً عميقاً يتعذر على كثير من المختصين بعلم النفس ان يبلغوا شأوه. كما اشار ابو الطيب، في بعض لحظات الابتكار الى امور تتحدى الزمان والمكان، وان كانت مستمدة في الاصل من الواقع الذي يعيش فيه. ورسم الشاعر- في مدحه- صوراً شعرية مترفة تصلح لكل زمان ومكان: بعضها يغاير الطبيعة، الحية والجامدة، ولكنه ارق منها واكثر اناقة وصفاء. وبعض اخر يشوه الطبيعة نفسها ويمسخ حقائق الجغرافية وعلم الفلك وعلم الاحياء، غير انه يتصف بالجمال الفني الخلاب، ويعبر اصدق تعبير عن مشاعر صادقة في جميع الاحوال. وهذا يعني- كما يرى الباحث- كان صادقاً في كل ما قاله من شعر اصيل في اللحظة التي قالها فيها؛ ولكنه قد لا يكون محقاً في ذلك بمقاييس غيره.

ان الباحث يجزم بصدق المتنبي، ومرر ذلك- كما يذهب- الى مقوماته الفسلجية الخاصة بالدرجة الاولى.. ويتساءل الباحث: واذا كان هذا صحيحاً- وهو صحيح بنظره- فهل يجوز ان نطبق على سلوكه وشعره مقياساً موضوعياً خارجياً غريباً عن مقوماته الفسلجية؟ وعن ظروفه الاجتماعية ايضاً؟

يهتم الكتاب- كما اشرت- بظاهرة الاصالة في شعر المتنبي. والمتنبي في شعره- كما يذهب الدكتور نوري جعفر- كالطائر الصداح يغرد احياناً، وهنا تتجلى اصالة شعره. و(ينظم) احياناً، وهو ما لم يتحدث عنه الباحث إلا عرضاً، ويحلق في الفضاء الرحيب فيتوارى عن الانظار. ويكرر احياناً ما قاله غيره، وهو ما لا يعني الباحث امره إلا بمقدار اسهامه في تقديم صورة متكاملة عن شعره.

أي ان الباحث مع المتنبي في هذا الكتاب يعيش المناسبة التي يغرد فيها بصرف النظر عما اذا كانت مشاعره انذاك ايجابية او سلبية بالمقاييس المألوفة، وبغض النظر عما اذا كانت ألفاظه رشيقة مترفة (او نابية ثقيلة على السمع في حالة الهجاء)، وبصرف النظر، ايضاً، عما اذا كان ابو الطيب محقاً او غير محق في ما يقوله بنظر غيره؛ لانه كان صادقاً بنظر الباحث: لقد خلق المتنبي وابتكر، وولد في شعره، وهذا الذي يعني الباحث بالدرجة الاولى.

ويذهب المرحوم الى ان المتنبي عاش- من حيث هو مواطن- في مجتمع متخلف وبدائي بالمقاييس الحضارية الحديثة، حيث انتشرت انذاك ايديولوجيا الاقطاع والحكم الفردي المطلق، وان كان مجتمعاً تقدمياً بالنسبة لظروفه الزمانية والمكانية. وقد تكسب بالشعر بوصف الشعر اداة ارتزاق في ذلك الوقت، فكان من هذه الناحية- كغيره من المواطنين والشعراء- يداجي ويصانع.

وهذه جوانبه الاجتماعية المشتركة مع غيره. وقد عبر عن ذلك في شعره غير الاصيل، او في نظمه بعبارة اخرى، وفي ابياته الحكمية ايضاً (التي هي احتجاج غير مباشر على جوانب فساد مجتمعة)؛ غير ان المتنبي من حيث هو شاعر اصيل- بالمقاييس التي طبقها عليه الباحث- شخصية فذة فريدة متماسكة لا تداجي ولا تصانع حتى في مواقفها المتناقضة- بنظر غيره- التي يعبر عنها في تصرفاته او مواقفه بإزاء الامراء والوزراء والمتنفذين الذين عاصروه في حالته الايجابية والسلبية او في اثناء المدح والهجاء، والمتنبي صادق- كما يرى الباحث- في مشاعره العنيفة التي تنطوي على المبالغة في المدح على الايغال في الهجاء؛ لانه يعبر عن تلك المشاعر الحادة المرهفة، فيتجلى صادقاً واصيلاً في اللحظة التي يعيشها من دون خداع او مواربة.

قد يبدو المتنبي- من الخارج أول وهلة ومن الناحية السطحية- كأنه يداهن او يرائي عندما يطنب مثلا في مدح كافور في اعقاب مفارقته سيف الدولة على مضض؛ ولكن مقومات المتنبي الفسلجية لا تجيز وصفه بالمداهن. فقد ظن من دون وجه حق- بنظر الباحث- ان علاقته بكافور ستكون ابدية، وانه سوف يجد عند كافور ضالته المنشودة ويقضي بذلك على حياة التشرد والترحال.

وعندما تلاشت آماله تلك، وانطوت معه مشاعره المرتبطة بها وقف موقفه الآخر. ويتساءل الباحث اذا كان الامر كذلك فهل يجوز لدارسيه ان يطبقوا- عند الحكم عليه- مقاييس النقد غير الذاتية؟ يجيب: تلك مسألة تحتاج الى



لقد وجد الباحث ان المتنبي عبر عن بعض خلجات النفس البشرية تعبيراً عميقاً يتعذر على كثير من المختصين بعلم النفس ان يبلغوا شأوه. كما اشار ابو الطيب، في بعض لحظات الابتكار الى امور تتحدى الزمان والمكان، وان كانت مستمدة في الاصل من الواقع الذي يعيش فيه. ورسم الشاعر- في مدحه- صوراً شعرية مترفة تصلح لكل زمان ومكان: بعضها يغاير الطبيعة، الحية والجامدة.

بحث مستفيض وقد تثير نقاشاً حاداً بين المعنيين بدراسة الشعر.

ان الذي ذكر بصدد موقف المتنبي من كافور هو جانب من جوانب سلوكه الذي هو بنظر الباحث تعبير في الحالتين عن مشاعر جامحة عنيفة ايجابية وسلبية.

ان المتنبي كان صادقاً فيها لعوامل فسلجية تميزه: فقد اندفع ابو الطيب بمشاعره الايجابية الجياشة نحو كافور، كما اندفع ايضاً بمشاعره الجياشةالسلبية عنه. ولم يكن بمستطاعه ان يكون غير ذلك. ولا شك- عند الباحث- في ان كافور الذي خلع عليه ابو الطيب أرق الاوصاف هو غير كافور الذي اوسعه ذماً، وذلك راجع الى كون المتنبي الذي مدح كافورا هو غير المتنبي الذي هجاه. فلدينا، اذن، كافوران متنافران لا وجود لهما وجوداً متكاملاً إلا في مشاعر المتنبي المعبر عنها في شعره.

وهما يختلفان كل الاختلاف عن كافور الآخر الذي يصوره لنا المؤرخون. ولوكان كافور الذي صوره لنا المتنبي في مدحه موجوداً بالفعل، لتعذر عليه ان يهجوه بعد ذلك. ولو كان كافور كما صوره لنا المتنبي في هجائه، لما تردد هذه (الكافور) عن ملاحقة المتنبي والغدر به.

ولعل مجرد تفكير المتنبي وهو عند سيف الدولة بالسفر الى كافور- فضلاً عن شده الرحال نحوه وإلقائه عصا الترحال في الفسطاط- يشير الى ان كافورا هذا المقصود هو غير كافور المهجو. وما يصدق على موقف المتنبي من كافور يصدق ايضا على مواقفه من جميع الذين مدحهم او ذمهم وأظهرهم على غير حقيقتهم التي ذكر لنا المؤرخون طرفاً منها.

لقد ذهب الباحث الى ان المتنبي اتصف- من الناحية الفسلجية- بتطور عال في مراكزه المخية الحسية البصرية، وبتطور آخر مماثل في مراكزه الدماغية الواقع تحت المخ. وتطور المراكز المخية الحسية هو الاساس الجسمي (المادي) للاصالة في مجال الفن بما فيه الشعر، في حين ان تطور المراكز الدماغية التي تقع تحت المخ- وهو الذي يلازم كبار الفنانين والشعراء ايضاً- هو اساس علاقاتهم بالطبيعة والمجتمع التي تتسم بطابع الانفعالات او المشاعر العنيفة الايجابية والسلبية، كما انه عاش في مجتمع إقطاعي متناقض في مقاييسنا الحديثة، ومن وجهة نظره كذلك، فانعكس ذلك التناقض بأغرب اشكاله وأروع صوره الادبية في شعره، وصبغ جوانب كثيرة في سلوكه، لانه حال دون تحقيق مطامح الشاعر الفذ والانسان المرهف الحس، ورفع من شأن أناس دونه في الكفاية والخلق بمقاييس اهل ذلك الزمان وبمقاييسنا ايضاً.

وهذا هو الذي جعل أبا الطيب غريباً عن المجتمع الذي عاش فيه من حيث هو شاعر ضخم ومواطن أبي ذو مطامح انسانية تتحدى الزمان والمكان. وقد عبر عن غربته Alienation بالتعبير العلمي الحديث بقوله:

"أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود"

وحين يطنب المتنبي مثلاً في مدح سيف الدولة او كافور، إنما هو يطنب في مدح نفسه، ويشيد بامكاناته وأمانيه التي يجدها مجسدة في الممدوح الذي هو كالمرآة الصافية التي يرى صورته فيها: اي انه يطنب- بعبارة اخرى- في الجوانب الايجابية التقدمية التي يجدها في نفسه، وفي الحاكم الامثل في ذلك الزمان. وهذه نزعة سايكولوجية معروفة انتشرت في مطلع القرن العشرين تسمى (مذهب التأمل الباطني Introspection).

قال يخاطب سيف الدولة في اعقاب مرض ألمّ به:

"وان محالاً- اذ بك العيش- أن ارى وجسمك مقل وجسمي صالح"

وقال في معرض تهنئة كافور ببناء دار جديدة:

"وانا منك لا يهنئ عضو بالمسرات سائر الاعضاء
وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء"

ثم فطن الى اختلاف لون بشرة كافور الزنجي عن لون بشرته فاستدرك:

"ان في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يذري بكل ضياء
انما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء"

لقد توزع الكتاب بين اربعة فصول.

كان الفصل الاول بعنوان: الاصالة، طبيعتها الفسلجية، وجذورها الاجتماعية.

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان: الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي.

وكان الفصل الثالث بعنوان: المتنبي المتناقض في سلوكه وشعره.

اما الفصل الاخير، فكان بعنوان: شعر المتنبي ومنزلته عند كبار الباحثين.

الإحالات:

١- لقاء مع الدكتور نوري جعفر، عن التكنولوجيا والثقافة المعاصرة، إعداد: حسب الله يحيى، مجلة الفيصل، عدد١٠٥، ربيع الاول ١٤٠٦ (كانون الاول ١٩٨٥)، ص٣٨.

٢- المكان نفسه.

٣- ينظر: المكان نفسه.

×برنامج: سيرة وذكريات. نسخة مسجلة موجودة في مكتبتي.

×× هكذا في الأصل، ولعلها (البصرة).

٤-دفتر الخدمة، النسخة الشخصية، ص١:ترجمة الحال- ص٢-٥: الوظائف التي تقلدها الموظف لدى الحكومة العراقية.

٥- شهادة وفاة صادرة من الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، اللجنة الشعبية للمرافق ببلدية طرابلس- مكتب السجل المدني، بتاريخ ١٠/١١/١٩٩١، محل الوفاة مستشفى صلاح الدين.

عرض لكتاب الأصالة في شعر المتنبي

تأليف د. نوري جعفر

ارتبط العلامة نوري جعفر بصداقة مع الفيلسوف الشهيد جون ديوي وكانت بينهما مراسلات، هذه واحدة منها

وثائق:

جون ديوي ٢٩ أيار ١٩٥٧

١١٥٨ الشارع الخامس نيويورك

عزيزي نوري

آسف لتأخري في الاجابة عن رسالتك ولكن عندما كنت في (كي وست) هاجمني فايروس مسموم يبدو انه نوع شديد ما يسمى بالانفلونزا، لم يتركني طريح الفراش عدة اسابيع حسب بل كانت له ايضاً عودة اشد وطأة من هجومه الاصلي فتركني متعباً وجعل قيامي بأية فعالية مستحيلاً، ويسرني ان الجزء الاسوأ من الموضوع قد انتهى ولكن في مثل سني يصبح المرء في هذه الحالة عديم النشاط- وقد اخبرني بفهم ان هذه الحالة قد تستمر ثلاثة اشهر. نحن حالياً في نيويورك ولكننا ننوي الذهاب الى (مابل لوج) بعد ان يتحسن الجو وانا اعد ترتيبات ذهابنا.

من الصعب ان نقول ان حالة الرأي العام واتجاهاته قد تحسنت. وعلى العموم يمكن القول انها سارت نحو الاسوأ. وعلى الرغم من حقيقة ان هذه البلاد هي بلا شك افضل من غيرها فهناك الكثير من العصبية التي يبدو انها تتزايد والمعارضة المحقة والطبيعية للشيوعية في الداخل والخارج يبدو انها خلقت مناخاً من عدم الثقة يسهل فيه توجيه التهم التي لايسهل انحسارها عندما يتضح انها لا تقوم على اساس. ولو تكلمنا من الناحية السياسية فاني اعتقد ان الشعب الاميركي قد نضج منذ انتهاء الحرب الساخنة ومن المؤكد ان نزعة العزلة قد تضاءلت ولكن المسؤوليات الجديدة لم يتم تعريفها بصورة صحيحة، وان ضغوط الحرب الباردة هي بصورة اساسية هي توترات ناجمة عن التأكد، ولحسن الحظ فانها لا تصل الى حد ان يقول الناس ان الحرب المعلنة هي افضل من الحالة الراهنة غير المؤكدة. ذلك ان الحروب اليوم مضجعة الى درجة تجعل من الصعب ان يتصرف الناس هكذا. والرئيس ترومان محظوظ في هذا الظرف، فهو على العموم، متفائل، واذا كان يهاجم بسبب سياساته الاقتصادية من قبل المصالح المالية الكبرى فيبدو انه ما زال محتفظاً بشعبيته على العموم ويعود ذلك الى حد كبير الى المشاعر. انه واحد منا ويشعر بشعورنا وهو امر جيد في الوقت الراهن ولكن ذلك قد لا يستمر. برغم ازمة البطالة. وهناك خمسة ملايين عاطل كما تعلم.

لقد سهلت الحكومة عودة المحاربين السابقين الى الدراسة لمواصلة دراستهم بعد الحرب وأصبح عدد الدارسين اكثر منه في مرحلة ما قبل الحرب، ولكن عدد الخريجين الباحثين عن عمل اصبح كثيراً الى درجة انهم لا يجدون لهم وظائف.

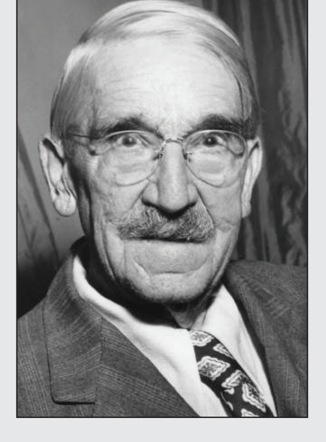
ولا ادري هل سمعت قصة الطالب الصيني الذي حصل على الدكتوراه من الكلية العلمية في كولومبيا وكان محظوظاً في الحصول على وظيفة في جامعة هوارد في واشنطن اي. سي. لتدريس الفلسفة، رغم ان عقده لهم يجدد بسبب امور مالية. أنا أخشى ان يعود الى الصين ولكونه ليبرالياً فلن تسعده هذه العودة.. وسترى من خلال ذلك ان الناس يعرفون قدراتك والعمل الذي يمكن ان تقوم به وانت مؤهل له ولكن من الخطأ ان تعتمد على آمال وهمية.

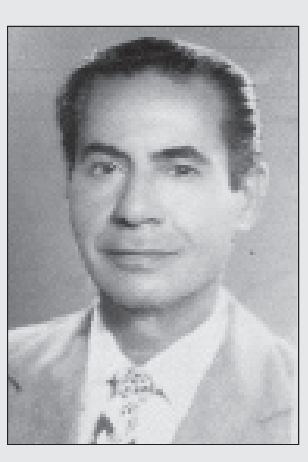
لست ادري ما اذا كنت علمت شيئاً حول الدكتور بود ولكني اظن انك ستود ان تسمع عنه. فهو ما زال في كينسفيل حيث ان ابنته السيدة براون تمارس التدريس هناك ولديه بيت يسكنه ويحصل فيه على الرعاية. ولان صحته ليست على ما يرام لذا فقد خضع للعناية الطبية وأصبح على درجة من الصحة تؤهله لمغادرة المستشفى الى بيته. وتقاريره الطبية تتحدث عن تحسنه ولكن أحداً لا يجرؤ على ان يكون مبالغاً في الامل وله فصل دراسي يضم ٥٠ طالباً متحمساً يأتون الى بيت السيدة براون لتلقي محاضراته وهو يضطجع على اريكة والجميع مرتاحون.

خالص تمنياتي

صديقك المحب

ديوي





ثلثان من الفطنة وثلث من التغافل

لا تكاد تسمع له وقعاً حين ينقل خطواته، لانه أدرك إدراكاً عميقاً- هو ادراك العالم المتواضع- قول ابي العلاء المعري: خفف الوطء ما أظن أديم الارض إلا من هذه الاجساد ولا تكاد تسمع الصوت الهادئ المتهدج الذي ينطلق من حنجرة طرية مع انفراج ابتسامة تحمل الكثير من التسامح والعفة.ولا تكاد تلمح في عينيه المتوهجتين الدالتين على الذكاء المفرط، إلا الدهشة والاستبصار في آن واحد.قلت له مرة- وقد تجاوز السبعين-: الندى سريع الزوال، لم ينبس ببنت شفة؛ لكنه ربت على كتفي. فهمت، ولم أفهم التربيت، وخشيت من الحرج.سئل مرة عن النصيحة التربوية التي يود توجيهها الى جيلنا.. قال: «ثلثان من الفطنة، وثلث من التغافل»!

حوار/ د. عبد الكريم راضي جعفر

انه العلامة الاستاذ المتمرس الدكتور نوري جعفر، والكتابة عنه امر صعب، على الرغم من قربي من المرحوم.. وتبدو هذه الصعوبة راجعة الى امر مفاده: ان الرجل لم يترك علامة- في مكتبته- تخص سيره الذاتية.. اقصد العلامة المكتوبة، ولم يكتب ذكرياته. ويبدو لي ان تعلقه بهذا الاهمال- اذا جاز التعبير- يرجع الى عدم استقراره، فقد كان كثير السفر، ومتطرف الانزواء عن الاضواء. ويكفي- اعزز ما ذهبت اليه: "الانزواء عن الاضواء"- ان اشير الى ان السيد حميد المطبعي، وهو في صدد اصدار موسوعته عن الرواد- اتصل بالمرحوم ليكتب له عن حياته وسيرته العلمية، ولكنه كان يماطل بحجج كثيرة. ولم يطق المطبعي صبرا، حتى اتصل بي من اجل اقناعه، وحين حدثته بالامر اعتذر اعتذاراً شديداً، لانه- كما يزعم- لم يقدم اي شيء يستحق الذكر، ولم يكن هو شيئاً حتى يكتب عن نفسه. وحين ذكرته بصفات العالم التي التصقت به.. قال: انهم يبالغون لست عالماً.. انا لا اصلح ان اكون معلم مدرسة ابتدائية!

بهذا التواضع الجم، كان الرجل يطأطئ راسه العالي، ويخفض دماغه الموسوعي. هذا الرجل المتواضع الذي اختارته "رئاسة المجلس الدولي للموهوبين في اميركا... من بين خمسة من العلماء النفسانيين في العالم لالقاء محاضرات تربوية ونفسانية هناك عن: القدرة العقلية الفذة في مادة الرياضيات...".

كان الدكتور نوري جعفر المحاضر العربي الوحيد الذي اسهم في هذا المؤتمر الذي عقد في مدينة سانت لويس الاميركية للمدة من ٦-١٠/١١/١٩٨٤.

قلت: لم يترك المرحوم ما يشير الى سيرته الذاتية؛ غير انني استطعت الحصول على بعض المعلومات من مصدرين مهمين: الاول: سجل الخدمة الشخصية، والاخر: مقابلة فريدة اجرتها الاديبة ابتسام عبد الله معه في برنامج اسمه (سيرة وذكريات) في منتصف السبعينيات سجلت هذه المقابلة على (شريط فيديو) فيه الكثير من القطع- سأشير الى ذلك اينما وجد-، ومع ذلك فانها مقابلة مهمة تلقي اضواء كاشفة على سيرته الذاتية والعلمية.وعلى وفق هذه المادة، وما تيسر لي من مكتبته العامرة، توزع هذا البحث بين محورين اساسيين هما: علامات في سيرته الذاتية والعلمية، والآخر: اثاره، فضلاً عن ملحق ضم رسالة نادرة من الفيلسوف جون ديوي- استاذه، ورسالتين من مؤسستين تعنيان بالموهوبين.

١-١. علامات في سيرته الذاتية والعلمية:

- نوري جعفر علي.
- أمه: حليمة بنت محمد علي الجلبي: كان لها الاثر الكبير في توجيهه وتنشئته.
- ولد في قضاء القرنة بمحافظة البصرة في عام ١٩١٤م.
- عين معلما في مدرسة القرنة الابتدائية للمدة من ١٨/١٠/١٩٣٦- ٣١/١٠/١٩٣٨.
- مفتش- معارف لواء الخدمة ٦/١٠/١٩٤٢- ٢١/٨/١٩٤٣.
- مفتش- معارف لواء كربلاء ٢٢/٨/١٩٤٣.
- خارج الخدمة- استقالة- ٢٥/١٠/١٩٤٣- ١٠/١/١٩٥٠.
- نال درجة الماجستير من (جامعة ولاية اوهايو) The Ohio State University سنة ١٩٤٨.
- نال درجة دكتوراه فلسفة من الجامعة نفسها سنة ١٩٤٩.
- مفصول من الخدمة ١٨/٧/١٩٥٤- ٩/٣/١٩٥٦.
- استاذ مساعد- كلية التربية ١٠/٣/١٩٥٦- ٦/١١/١٩٥٩.
- مدير عام الدائرة الثقافية- وزارة التخطيط ٧/١١/١٩٥٩- ٢٢/٣/١٩٦٣.
- خارج الخدمة (مفصول) ٢٣/٢/١٩٦٣- ١٤/٩/١٩٧٠.
- استاذ مشارك/ الآداب ١٥/٩/١٩٧٠- ١/٥/١٩٧٢.
- استاذ/ الآداب ٢/٥/١٩٧٢- ٧/١٠/١٩٧٣.
- استاذ/ كلية التربية ٨/١٠/١٩٧٣- ٢/٥/١٩٧٥.
- توفي في ٧/١١/١٩٩١- في ليبيا ودفن فيها.

١-٢. (سيرة وذكريات): (ابتسام عبد الله)

• الدكتور نوري جعفر عالم اعترفت بكفايته الجامعات العالمية المعروفة، بعد ان نشر نظريته الابداع واليات الدماغ.. اريد حديثاً موجزاً عن الحالات الابداعية؟

- هذه الحالات- في الواقع- بدأت ادرسها من ١٩٦٢- ١٩٧٤، الى ان نضج الموضوع في ذهني، ومنحتني جامعة بغداد تفرغاً علمياً في جامعة شفيلد البريطانية، واجريت البحث، وصار له صدى حسن في الاوساط السايكولوجية.

• يقال ان هناك سيدة هندية (شاكنتالا) معروفة بقدرتها الحسابية للدماغ اي يعمل بشكل كأنما آلة (كومبيوتر) هي التي جاءت الى بغداد قبل بروز ظاهرة (عادل شعلان).. اين صار عادل شعلان؟

- والله، الذي اعرفه كان قد قبل في كلية الزراعة، ويمكن اشتغل في المجلس الزراعي الاعلى في وقته، وبعد مدة استقدمه الاستاذ كامل الدباغ لما كان مديراً عاماً للرعاية العلمية، وانا كنت متعاوناً مع الاستاذ كامل، فجاء (عادل)، وجاء اطفال يمكن ستة او سبعة صغار، والان لا اعرف اين صار عادل شعلان، وليس لدي معلومات عنه.

• لم يبق اتصال؟

- هذه القدرة الحسابية التي ذكرتها عن هذه الهندية، مكتشفة من القرن الماضي (القرن التاسع عشر). هناك حالات في انكلترا وفي فرنسا وفي الولايات المتحدة.. حلات عجيبة. طبعاً هذه حالات قدرة حسابية مثل (الكومبيوتر).

بعض الاشخاص يعتقدون ان هذه الحالات لا يعتبرونها من المواهب، لانهم يعتبرون القدرة بالرياضيات: حل مسائل معقدة. وطبعاً هذه اراء مختلفة متعددة (الوقت لا يتسع للدخول في تفاصيلها).

• اما وجدت نفسك انك تتجه الى خط اخر غير الخط الذي ابتدأت به دراستك: علم النفس؟

- في الواقع، علم النفس الذي درسته في الولايات المتحدة ولا يزال لدى كثير من الاوساط في الولايات المتحدة، باستثناء فرنسا وسويسرا، لان فيه اتجاها آخر.. يمكن اذا عندنا متسع من الوقت نقوله.

القدرات العقلية او الذكاء بعبارة اعم يولد مع الانسان، يولد بكميات متفاوتة عند الناس، هذه الكميات المتفاوتة تقاس بمقاييس (قطع).

الان الاتجاه الذي شاهدته بالمؤتمرات الدولية- سنتحدث عنه بعد قليل-.. الاتجاه نحو فرع جديد من علم النفس يستند الى علوم الدماغ، او علوم الاعصاب. من هذا الاتجاه، نشأ علم نفس جديد اسموه (نروسايكولوجي) الذي يأخذ منطلقه من ان الدماغ عضو العمليات العقلية مثل: التفكير، الخيال، التذكر، الانتباه.. يتألف بحسب رايهم من جانبين: الاول: المادي او الجسمي او الدماغ، والاخر: المحتوى مثل عملية الاكل: القدرْ ثم المادة التي توضع فيه المادة.. المادة تجيء من البيت. هذا الاتجاه في الواقع هو الذي بحسب ما اطلعت عليه، هو الذي اخذ يتغلب على الاتجاه القديم.. الاتجاه القديم لا يزال....

بعض الاشخاص يعتقدون ان هذه الحالات لا يعتبرونها من المواهب، لانهم يعتبرون القدرة بالرياضيات: حل مسائل معقدة. وطبعاً هذه اراء مختلفة متعددة (الوقت لا يتسع للدخول في تفاصيلها).

• هذا تفسيرك.. ايضاً، هل بامكاننا ان نقول: حضرتك ربما كنت موهوبا منذ الطفولة، لكن موهبته ما وجدت من يرعاها. بشكل كامل صحيح، الوجهة التي اتجهت اليها اخيراً؟

- والله، هذا صعب ان اتذكرها.. انا ولدت في مدينة القرنة.

• في اية سنة؟

- ١٩١٤. والدي فلاح بسيط، والدتي بنت عمه، غير ان اباها- في نظر اهل البلدة- اكثر وجاهة من ابي.. ولها- في الحقيقة- الاثر الكبير في تكويني. كانت هادئة، وكثيرة التحمل، وتقرأ (القران).. كان ذلك في العشرينيات. ولي شقيق واحد. فتحت مدرسة ابتدائية في القرنة- لا اتذكر اسمها- سنة ١٩٢٦ الحت (امي) على الوالد ان ياخذني، وياخذ شقيقي ويسجلني في المدرسة. مانع، ومانع بعنف. بعد هذا اقتنع ان ياخذني.. هو لم يكن يرتاح لي كثيراً.. ذاك الاخ اكثر هدوءاً مني، انا، يمكن عندي حركات، فاعتقد ان تسجيلي في المدرسة كان نوعا من العقوبة. قال: انا اخذ هذا فقط واشار الي..قالت: خذه. اخذني الى المدرسة.. اعطتني امي القران- وقد حفظت منها كثيرا من السور القصيرة- وكنت اقرا بالقران قراءة مغلوطة.. طبعا لانني ما تعلمت بشكل صحيح.

• اما تعلمت بـ(الملّة)؟

- لم يتهيأ لي.. اخذني والدي الى المدرسة، واعطتني والدتي القرآن، ودخلنا الى المدرسة لمقابلة مدير المدرسة الطيب الذكر الاستاذ ياسين الملا حويش. قال والدي: هذا ابني اريد ان اسجله، وهو يقرا القران. طلب المدير ان اقرأ.. ارتجفت بشكل لا يطاق بحيث وقع القران من يدي. تناولته.. قبلته وفتحته لا على التعيين.. ولم انظر اليه.. وانما كنت ارتجف. وبدات اقرا الايات التي حفظتها بشكل مذهل: الحمد لله، تبت يدا... الخ. انتبه المدير قال: تعال بقربي.. نظر فوجدني امسكت بالقران بالمقلوب.. مع هذا شجعني وقال لي: ابني ساسجلك في الصف الثاني.

احببت المدرسة بشكل لا يوصف.. وكان اهتمامي الكبير بدرس الرياضيات واللغة العربية، وبالتاريخ، وكنت اتضايق من الرسم، والاعمال اليدوية، واتضايق ايضاً- اكره وليس اتضايق- الجغرافية.

• لماذا؟

- بدأنا بالجغرافية سفرة بالقطار من بغداد الى البصرة. يجب ان نحفظ اسماء المحطات التي يقف القطار فيها. طبعاً حفظها صعب. واذا اخطأ احدنا في محطة، او قدم محطة على اخرى، فالمعلم لا يرحمه، وعندما نحفظها بشق الانفس، فان القطار لا يبقى في البصرة.. يجب ان يعود الى بغداد.. هنا يجب ان نحفظ المحطات بالطريقة المعكوسة.. وهذه صعبة جداً. طبعاً القطار لم اسمع به، انا عشت في قرية اسمع بالمشحوف (بالبلم) هذه وسائل نقل.

الذي كرهني بها مرة اخرى اكثر من هذا: سفرة بالباخرة حول جزيرة العرب او جنوب جزيرة العرب. لم اسمع بالباخرة. نركب من البصرة لنصل الى عدن، وكل المحطات في الطريق يجب ان نحفظها.. ثم ان الباخرة لا تبقى في عدن.. يجب ان ترجع الى البصرة.

حالة اخرى كرهتني بالجغرافية- الى الان اكرهها- يجب ان نحفظ اسماء العشائر الكردية والعربية،ونحفظ اسماء الالوية والاقضية والنواحي، ونحفظ جبال العراق: اسماءها وارتفاعاتها.. كرهت الجغرافية.

• في الخامس ابتدائي اذا تذكر؟

- اظن في الصف السادس الابتدائي.

كانت (درجاتي) في الرياضيات ممتازة، وكذلك في التاريخ واللغة العربية؛ لكنها تهبط في تلك الدروس.

• والبكالوريا؟

- ذهبنا الى البصرة.. واستمر ولعي باللغة العربية؛ لانني التقيت باساتذة درسوني.. وشجعوني كثيراً.. وهم من الاسماء اللامعة. حينما تخرجت من الثانوية، جئت الى دار المعلمين العالية (كلية التربية الآن)، نسبوني الى فرع التربية وعلم النفس، وانا لم اسمع بالتربية ولا بعلم النفس.

• الم تختر الرياضيات او اللغة العربية؟

- كنت ارغب في الدخول الى الكلية الطبية؛ ولكن تعرفين الظروف المادية. ولو خيرت- بعد ان تعرفت على تخصصي- فلن ادخل الا الى كلية التربية.. اقصد دار المعلمين العالية، ولو يطلب مني ان اتخصص، فلن اتخصص الا في التربية، وعلم النفس، لانها- في الواقع- اصبحت جزءاً مني. ذهبت الى الخارج، وكان ولعي في التربية ينمو بتاثير العميد الدكتور متي عقراوي، وبتاثير الدكتور احمد عزت راجح- كان استاذاً مصرياً منتدباً.. لما ذهبت الى القاهرة..

• قبل ذلك.. نأخذ اذا تسمح

- انا احببت ان اختصر!

• ناخذ بغداد كيف رايتها اول ما جئت اليها؟

- والله بغداد، نتكلم على شارع الرشيد.. كانت غير شكل.. كانت- في الواقع- اقرب الى قرية، وكانت حدودها- انا اتحدث عن سنة ١٩٣٩، وكنت في الصف الاول من الكلية- كانت حدودها: الباب الشرقي غير موجود.. هذا بستان يسمونه (بستان خس) وهو مخيف في الليل. لا احد يستطيع ان يصل اليه، وكانت فيه حيوانات مفترسة. الابنية كانت كلها محدودة. وشارع الرشيد له صور عند المصور عبد الرحمن وهي صور لطيفة احسن مما اصفه. السيارات

نادرة.. تراها كل نصف ساعة او كل ثلاثة ارباع الساعة او كل ساعة.. قليلة يمكن عند الوزراء.

• وسائط النقل؟

– وسائط النقل كانت (العربانات) تقف في باب المعظم. الناس الذين يتمتعون بوضع جيد يعطي درهماً ليذهب الى الباب الشرقي.

• قدمت الى الطبية ام تراجعت؟

– تراجعت طبعاً. احد اصدقائي وهو بصري، وضعه المالي جيد.. قال: هذه الكلية صعبة عليك: الاكل والمنام والكتب الاجنبية.. واظن كانوا ياخذون اجوراً من الطلاب. مهما يكن انا لا استطيع دفعها.

ذهبت الى الكلية (يقصد دار المعلمين العالية)، وكانت درجاتي عالية. سالت الفراش بالباب. وكانت الكلية في باب المعظم.. قلت له اريد ان ارى العميد.. العميد في الطابق الثالث.. كان الدكتور متي عقراوي. دخلت: انا رجل قروي، جاء ببنطلون لا اعرف شكله و(الدشداشة) داخلة فيه.. يمكن فكر انا عامل.. كذا. قال: ماذا تريد؟ قلت له: سيدي جئت اقدم اوراقي الى الكلية. قال: ما اسمك؟ ذكرت له اسمي. قال: انتهى القبول، واخذنا (الملفات) الى الوزارة، وليس هناك مجال.. تراجعت.. لكنه حين نظر الى درجاتي.. قبلني الرجل، ورعاني رعاية كبيرة. تخرجت في الكلية، وكنت الاول. وكنا اول دورة. كنا ستة: خمسة طلاب، وطالبة واحدة.

• تتذكرهم؟

– واحد اسمه عبد القادر سليمان– اظنه حياً الان– هذا اخونا وصديقنا، وواحد اسمه عبد الله من الشمال، واخر: خليل شعبان اظنه توفي من بعقوبة، والبنت هذه اديبة ابراهيم.. استاذة فاضلة وسيدة محترمة.

• ما عدا هذا القسم– علم النفس– هل هناك طلبة بارزون في اقسام اخرى..الا تتذكرهم؟

– في الادب.. لغة عربية اتذكر: الدكتور عبد الستار احمد الجواري كان من الطلبة اللامعين في قسم اللغة العربية، وفي التاريخ الاستاذ احمد عبد الباقي اصبح مدة وكيل وزارة..

• بعد ذلك؟

– ذهبت الى القاهرة.. الى معهد يسمى (معهد التربية العالي)، عميده رجل معروف محترم اسمه الاستاذ اسماعيل قباني، انتفعت منه كثيراً، واستاذي في علم النفس اسمه عبد العزيز القوصي– وهو مشهور ومعروف– اكملت الدراسة هناك.. بعد ذلك؛ ذهبت الى الولايات المتحدة. طبعا انصبت جهودي كلها على التربية وعلم النفس... التاريخ واللغة العربية دراسات شخصية اتابعها. في دار المعلمين– نسيت ان اقول– اللغة العربية تركزت عندي بتاثير الاستاذ طه الراوي، اذ كان يدرسنا اللغة العربية.

قلت: ذهبت الى الولايات المتحدة، ومن حسن الحظ صارلي اتصال بالفيلسوف (جون ديوي)– اذ صارت لي علاقات شخصية معه– واهداني احد كتبه..

• هل كان هو المشرف؟

– لم يكن مشرفاً.. كان متقاعداً؛ ولكنني ارتبطت به شخصياً. امكث عنده في البيت، واخذ منه معلومات، واتناقش معه.

• انطباعاتك عنه؟

– عنه هو..؟

• شخصيةً!

– بقيت عنده في شقته بنيويورك شهراً، اتناقش معه في امور، فيشجعني. انا– في الواقع– كنت اقرا كتبه، واحفظ جملاً اقولها وكأنها من بنات افكاري.. واخذت معه صوراً.. كنت في ذلك الوقت من الطلاب البارزين، اذ كان يصلني شكر كل ثلاثة اشهر.. الدرجات كانت تصل الى السفارة. وهذا الشكر بتوقيع السفير انذاك: علي جودت الايوبي.

• هذه الدراسة كم استمرت؟

– استمرت خمس سنوات.. الماجستير: بسنتين، والدكتوراه بثلاث سنوات.

• حول ماذا؟

– حول فلسفة التربية: عن فلسفة (جون ديوي) التربوية وتطبيقاتها في العراق.

رجعت.. تعينت في الكلية التي تخرجت فيها سنة ١٩٥٠، وفارقت الكلية سنة ١٩٨٣، بسبب بلوغي سن التقاعد.

• تخرجت؟

– الحقيقة بالمدة التي اتذكرها الان، اقحمت نفسي بقضايا كثيرة.. وكنت اتعارك سخرة– في الواقع–.. بالحق وبالباطل.

الان: انا رب عائلة، اب، وام، وصديق، وحارس امين لفصلي الذي بلغ احدى عشرة سنة: في الصف السادس، وله شقيقتان: خلود، ونجود. واتمثل بقول الشاعر اذا سمحت لي:

قد يجزع المرء الجليد وتبتلي عزيمة رأي المرء نائبة الدهر

تعاوده الايام فيما ينوبه فيقوى على امر، ويضعف عن امر

يعني الانسان... الحياة ضمن الشباب يكون شكلاً، ودور الشيخوخة يكون شكلاً.. نحن الان ننظر الى اطفالنا.

• استاذ.. من كتبك– قبل مرحلة دراسة الدماغ– اي الكتب كانت وما تزال اثيرة عندك؟

– الكتب التي اصدرتها قبل دراسات الدماغ– قسم كبير منها قبل ثورة تموز– كتاب اسمه: فلسفة التربية.. هذا خلاصة فلسفة التربية بالنسبة للولايات المتحدة، وايضاً كتاب عنوانه: التاريخ مجاله وفلسفته، وكتاب عن العلوم الطبيعية ١٩٥٥، وهذا نال جائزة المجمع العلمي العراقي.. كل المعلومات التي فيه، هي الان غير ما ذكرت فيه.

انا اعتز الان بابحاثي الاخيرة، لاسيما البحث الذي كتبته باللغة الانكليزية في جامعة شفيلد.

• الان، ناخذ هذه المرحلة الثانية من دراساتك.

– هي الاهم طبعاً.

• نعم.. الاهم في رايك ورأينا.. هذه المرحلة التي كرستك عالماً وصاحب نظرية.. اريد ان اعرف شيئاً عن البحث الذي طبعته في البداية في جامعة شفيلد.. كيف توصلت الى هذه النظرية الجديدة؟

– اشكر لك مشاعرك.. وكلمة (عالم).. اعتقد انها كثيرة عليّ.. ومثل ما قال احمد شوقي:

.... ان هذا الحرير كثير على الرمة البالية

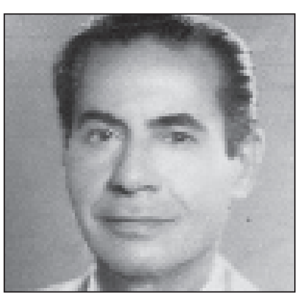
انا في الواقع طالب علم، ومتصل به.. مثل ما ذكرت في اول الحديث.

لما لفت ذهني موضوع الدماغ واثره في العمليات العقلية، الذي بدأ عندي– كما ذكرت– سنة ١٩٦٢، ونضج سنة ١٩٧٤.. واخذت على اثره التفرغ العلمي، عملت البحث في جامعة شفيلد بين قسم علم النفس وقسم الطب/ كلية الطب. الاطباء ياخذون الدماغ من الناحية الفسلجية، يعني هم لا يبحثون في الجوانب السايكولوجية، او جوانب العمليات العقلية التي يقوم بها الدماغ. ثبت في علوم الاعصاب.. هذه مشهورة الان. الحقيقة انتعشت بعد الحرب العالمية الثانية. (ربما اطلت قليلاً)

• خذ راحتك.

– القسم الاعلى من الدماغ الذي يسمونه (المخ) وهو القشرة التي فوق الدماغ. هذا

الاشخاص الذين يصابون بصدمة يصبح لديهم نقص. هذه بحسب علوم الدماغ- مقسمة- او بحسب علم النفس (Neuropsychology) اسميه ولا اعرف ما اسمه بالعربية.. علم النفس المستند الى الدماغ.. هذه مقسمة الى كتل مثل عناقيد العنب. هذه الكتل: كل كتلة لها وظيفة لكن ككل.



القسم الاعلى الذي هو المخ يتألف– بحسب ما يذكر المختصون– من حوالي ١٤ الف مليون خلية. هذه موجودة لدى كل الناس، بصرف النظر عن اللون، والدين، والجنس، والقطر.. كل الاسوياء.

الاشخاص الذين يصابون بصدمة يصبح لديهم نقص. هذه بحسب علوم الدماغ– مقسمة– او بحسب علم النفس (Neuropsychology) اسميه ولا اعرف ما اسمه بالعربية.. علم النفس المستند الى الدماغ.. هذه مقسمة الى كتل مثل عناقيد العنب. هذه الكتل: كل كتلة لها وظيفة لكن ككل. هذه الكتل تنقسم عند الناس ليس بالتساوي، ولا عند الشخص الواحد. اذا تتجمع الخلايا العصبية في القسم الامامي الاعلى الذي يسمونه الفصين الجيهيين.. اذا تتجمع، يعني في القسم الاخر اقل.. هذا يكون الاساس المخي للشخص الذي يمكن ان يكون عالم رياضيات.. يمكن ان يكون، او عالم في الفيزياء النظرية.. في المسائل النظرية، حسب العلوم الاجتماعية النظرية الصرف.. فلسفة، تاريخ...الخ.

وهذا ايضاً حدث بشكل ميداني بعد وفاة انشتاين سنة ١٩٥٠، ثبت انه– انا عندي رسالة من الشخص الذي شرح دماغ انشتاين– كانت اغلب الخلايا العصبية من هنا، لكن هذا الاساس،.. هذا لا يكوّن رياضيات.. يجب ان يقرأ الرياضيات يستثمرها. اذن حتى يكون عنده نظرية بالفيزياء او بالفلسفة، او بالرياضيات، ليس يكون عنده الاساس الدماغي، بل يجب ان يكون عنده الاساس الذهني، وليس الاساس الثقافة.

مرات يتهيأ (لشخص) مدرس.. والدته تدرسه، مكتبة، لكن هو لايدرس. اذن ثلاثة عناصر يجب ان تكون: العنصر الفسلجي الذي هو الخلايا العصبية والعنصر الاجتماعي الذي هو الجانب الثقافي المدرسي، او المنزلي...الخ، والعنصر السايكولوجي. انت تلاحظين كثيراً من الاطفال، ويمكن الكبار ايضاً، تهيئ لهم كل الامكانات لكن لا يقرأ.. فيجب ان تتوافر ثلاثة اشياء.. فاذا توافرت.. هذا حتماً من نوع انشتاين، او هؤلاء الناس المشهورين.

انا درست حالات كثيرة منهم: كولز.. هذا– في الواقع– كان في الصف الثاني الابتدائي، انا ذكرته مع عادل شعلان. هذا (كولز) جاء معلم الحساب الى الصف، ويظهر ان هذا المعلم عنده شغل خارج الصف، ولا يريد ان يعلم المدير بخروجه.. وانت تعرفين حين يترك المعلم الصف. اعطاهم المعلم مسألة يمكن عشرين درساً لا يستطيعون حلها. فكتب على (السبورة) من١–١٠٠، قال: اكتبوا في دفاتركم واجمعوها: ١+٢=٣، ٣+٣=٦.. هذا الطفل بعد ان خطا عشر خطوات، قال للمعلم: انتهيت من حل المسألة. استغرب المعلم، نظر اليه فوجده قد حلها بسطرين. قال: كيف حللتها. قال: سيدي، انا نظرت فوجدت: رقم ١ فوجدت رقم (١٠٠): ١+١٠٠=١٠١، ونظرت: ٢ ومن الجانب الاخر (٩٩)=١٠١، ونظرت فوجدت:٣ ومن الجانب الاخر (٩٨)=١٠١، ونظرت فوجدت: ٤ ومن الجانب الاخر (٩٧)=١٠١. نظرت هذا من (١).. خمسين مرة تكرر، فضربت ٥٠X١٠١=٥٠٥٠.

هذا النوع من الافراد نادر جداً. يجب ان يكون له اساس. هذا الطفل– انا اعتقد– في ذلك الوقت لم يكن له اساس ثقافي، هو في الصف الثاني. الذي صيّره بهذه الندرة، هو اساسه المخّي. فهذه المناطق التي يسمونها: المخية الثلاثية– هناك مصطلح بالانكليزية لا ضرورة لذكره المختصون يعرفونه–.. هنا، اذا استثمر......

• وهذه تتكرر من جهة الفكر؟

– لا نعرف.

×××

– انا تكلمت مع رئيس جامعة بغداد، قبل الرجل ان تصير في اقسام علم النفس بكليات الآداب، وبكليات التربية.. هي الاقسام المختصة بدراسة الجهاز المركزي العصبي، بعد ان كانت مرتبطة بقسم الفسفة.

احببت ان اقول امر اخرى– وهذا عرضي– ان دور الحضانة ورياض الاطفال في الاتجاه الحديث يلحقونها بوزارات الصحة– قسم طب الاطفال، لان هؤلاء الاطفال في السن هذه، لا يحتاجون الى معلومات، بل يحتاجون الى رعاية صحية، والمعلمات يدرسونهم يعطونهم دروساً طبية، حتى تكون هي معلمة وممرضة في آن واحد. هذه مسألة عرضية.

• سؤال.. المؤتمرات التي اوفدتك اليها الحكومة العراقية.. اكيد اطلعت على السبل الجديدة لرعاية الموهوبين.. كيف يكون ذلك؟

– في الواقع، يختلف اسلوب الرعاية باختلاف سياسة الدول، انا هنا اتحدث عن الدول الغربية.. الولايات المتحدة، يمكن لانها تمتلك امكانات مادية من مدرسين ومختبرات. اوفدتني وزارة التربية لدراسة اساليب رعاية الموهوبون في الولايات المتحدة، بغض النظر عن معلوماتي الشخصية،.. اهم شيء الان في الولايات المتحدة رعاية الموهوبين بالرياضيات، الاهتمام بها لانها اصل كل العلوم.

هؤلاء الموهوبين يأخذونهم في سن مبكرة.. الامهات يلتقطنهم ويجلبونهم الى الاستاذ (ستانلي).. عنده مسحُ.. رأيت عنده طفلاً عمره احدى عشرة سنة، دخل الجامعة (عندنا يدخل الجامعة ١٧ سنة). طبعاً كيف يدخل هذا؟ يعفونه من بقية الدروس.. هو مهتم بالرياضيات. الطريقة– طبعاً هم مجتمع ليبرالي– طريقة التلاعب بالمنهج.. بالشكل الذي يريدون. كثير من الامهات، بحسب ما ذكر لي الاستاذ (ستانلي) نفسه، تمانع من هذا الصعود، وكثير من الجامعات تتردد بقبولهم، لان ثمة نقصاً في المستلزمات..

الدول الاشتراكية–زرت الاتحاد السوفيتي– عندهم اربع مدارس مختصة بالرياضيات. وهذه ملحقة بالجامعات. واحدة ملحقة بجامعة موسكو، وواحدة ملحقة بجامعة لينغراد، وثالثة بباكو، والرابعة لا اتذكر اين! هذه تدرس الرياضيات فقط.

في الولايات المتحدة– تعرفين التعليم اهلي– توجد مراكز. وفي انكلترا مراكز يعني مثل ما نذهب للسينما.. في العطلة الربيعية.. ايام الاحد. الرعاية بانكلترا تمنع رعاية الموهوبين عن طريق الدولة.. يعدون مثل ذلك ضد الديمقراطية، بالنسبة لديمقراطيتهم.. لا يمانعون اذا مدرسة اهلية ترعى الموهوبين، او جمعية رعاية الموهوبين ببريطانيا تفتح مراكز.

زرت قسماً من المراكز، في الدول الاشتراكية، ليس هناك الا تعليم الدولة.. ولهذا يكون التعليم مركزياً. الان، عندنا– هنا– دراسة مستفيضة.. على وشك الانتهاء لانشاء مدرسة خاصة لوزارة التربية.

• يعني تنمية مقدرة معينة عند شخص، مثلاً حضرتك، ذكرت عند الاطفال الموهوبين، قرأنا اخيراً طالبة انكليزية عمرها ١٣ سنة، انهت اكسفورد.

– هل رأيت صورتها؟!

• نعم.. استاذ فضلاً عن هذه الكتب التي ذكرناها. بقيت دراسة الدماغ الذي سمع عنها المشاهد القليل.. عندك كتب اخرى عن التربية، وطبيعة الانسان، وكتب عن الاحلام.. اولا نتحدث بشيء موجز، هل كان العرب او المسلمون يعرفون مثلاً: الذاكرة، الانتباه، الدماغ، التخيل؟

– والله.. عندهم ابحاث، وابحاث اصيلة، لكنها منثورة، يعني ليست في كتاب معين. يعني المرء– احياناً– يقرأ كتاباً في الطب، او يقرأ كتاباً في الفلسفة، او في الفقه، تجدين من ذلك الكثير، لكن تحتاج الى تجميع. وهذه العملية ليست سهلة. هذا الكتاب الذي رأيته.. انا جمعت مادته في سنين.

• مثلاً اخوان الصفا؟

– رسائلهم فيها كثير عن الدماغ. تحدثت عن اخوان الصفا مرة في ندون بالتلفزيون. وبالنسبة لظروف القرن الرابع الهجري والقرن الحادي والعشرين– سوف نصير فيه– لكن في الرسائل علامات. ايضاً لاحظت في كتب التراث قضايا تربوية. هؤلاء لم يعترف بهم لأنهم ليسوا رجال تربية. قرأت رسالة صغيرة– يعني توصية– وجهها عتبة بن ابي سفيان الى معلم ابنه.

• من الكتب الاخرى: الاحلام.. في رأيك الاحلام هل يمكن تفسيرها ولو بشكل موجز.. الوقت لا يكفي لكتبك.

– مسألة الاحلام– تعرفين– مسألة شائكة ومعقدة، وفيها آراء متضاربة.. بحسب الاتجاه الحديث: ان الحلم له اداة جسمية وهو الدماغ، وله محتوى: المحتوى يأتي من البيت؛ لكن لا يتأتى بشكل متجانس. كل ما مر على الشخص من ذكريات من طفولته الى اللحظة التي حلم بها. ومرات تخرج الذكريات القديمة مع الجديدة. مرات الشخص يشاهد والده الذي توفي، يراه كأنه هو جديد، وربما يرى ابنه الذي هو طفل، يراه رجلاً كبيراً في السن.

• اللاوعي او الباطن؟

– بالنسبة لرأي فرويد، لكن يسمونها (ذكريات).. الذكريات المنسية مرات لا تأتي هذه الذكريات على بال الانسان.

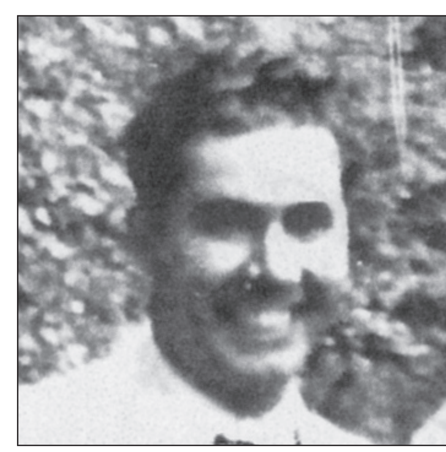
الحلم بحسب الرأي الشائع لا يتنبأ بالمستقبل، وانما يتحدث عن الماضي. وطبعاً هناك تفسيرات اخرى مثل: ابن سيرين يتحدث عن حلم المستقبل.

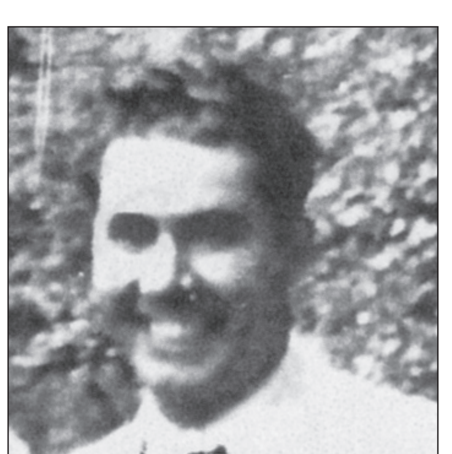
العلامة نوري جعفر

غيبه الطغاة وقضى عليه سائق مجرم

د. عزيز العبيدي*







في اعوام القهر والمرارة والاستبداد غصت المنافي الباردة البعيدة باللاجئين الهاربين من جحيم السلطة الغاشمة وقبضتها الحديدية التي كتمت انفاس الاحرار من بنيها لتحيلهم الى المقابر والمنافي والسجون او الركوع تحت قدمي الجلاد القبيح.

في تلك الاعوام القاسية كان ازلام السلطة يتنعمون في العواصم ذات الليالي الحمر في وقت كان فيه الاحرار يطعمون اعمارهم للغربة والبعد عن الاهل والاوطان انينهم يصل عنان السماء ونشيجهم يشق السكون ودموعهم تغسل ارواحهم الطاهرة من صدأ الغربة لتزرع الامل تلو الامل في بزوغ فجر جديد يخلو من الجلادين.. ولكي لاتضيع المعاناة ويذهب الضحايا الى خزانة النسيان آثرنا ان نستل من سجلات الحوادث التي وقعت في الغربة حكاية تحمل طعم المرارة والالم وما نسرده الان عن شخصية علمية فذة هي واحدة من مئات الضحايا التي اجبرتها سلطة القهر على الهروب الى المنافي بعيدا عن الوطن والاهل والاحباب....

نبدأ حكايتنا من اولها كما تبدأ حكايات المآسي الحزينة.

فقد ولد الدكتور نوري جعفر في الجنوب بين الفقر والجوع والفاقة كان ذلك في عام ١٩١٤ في مدينة القرنة بمحافظة البصرة لاب فلاح فقير... وبجده واجتهاده وفطنته وذكائه حصل على معدل عال في المرحلة الاعدادية يؤهله لدخول كلية الطب بتفوق.. حمل شهادة البكالوريا واوارقه جاء الى العاصمة بغداد ليصدم بامتحان المقابلة التي تجريها كلية الطب بعميدها الانكليزي سندرسن باشا الذي سأله بعدما رآه بزيه الريفي هل بمستطاعه ان يصرف كل شهر مبلغ (٥) دنانير على دراسته فأجابه بطيبة الفلاح الجنوبي الفقير: لا انا ولا ابي شاهدنا الـ(٥) دنانير هذه! فرفض الانكليزي سندرسن باشا قبوله في كلية الطب رغم ان معدله ٩٤٪ الفرع العلمي مما دعاه الى تحويل اوراقه الى دار المعلمين العالية ويكون واحدا من المتفوقين الذين ارسلوا في بعثة دراسية الى امريكا ليحصل هناك على شهادة الماجستير والدكتوراه بـ(٥) سنوات وكان من اساتذته هناك الفيلسوف الامريكي جون ديوي ابو البراغماتية والمنظر الكبير للديمقراطية الامريكية الذي اعجب بذكاء الطالب العراقي ونباهته وتنبأ له بمستقبل زاهر يخدم به بلده والانسانية جمعاء... وبقي جون ديوي معجبا بالرجل العراقي هذا حيث ادخله شقته لمدة شهر بنيوريوك جرى فيها الكثير من النقاش والحوار لفائدة الطرفين... وعندما ذهب جون ديوي الى مصيفه في احدى قرى ولاية بنسلفانيا قرر ان يصطحب معه هذا الطالب العراقي النابغة، وعندما عاد الطالب الى وطنه العراق بقي جون ديوي متواصلا معه بالمراسلة حتى وفاته عام ١٩٥٢.. وعند عودة هذا الطالب الى بغداد عين استاذا في كليتها ليكون واحدا من ألمع الكفاءات التي اسهمت في بناء جيل علمي حتى مجيء (الاوباش) عام ١٩٦٣ اذ فصل من وظيفته ظلما وعدوانا ولكنه تفرغ للبحث العلمي ليبدع في ميدانه ويعرف ببحوثه الفائقة في الجامعات العالمية مما اضطر السلطة لاعادته الى وظيفته في الجامعة عام ١٩٧٠... حتى احال نفسه إلى التقاعد بعدما لاقى من عنت السلطات ما لاقى وليكون عرضة مرة اخرى لمتطلبات العيش في الظروف المعيشية القاسية التي مرت في العقود الماضية وتحت ضغوط عديدة منها ما هو سلطوي ومعيشي اجبر على الهجرة حاله حال الآف الاخيار من اصحاب الكفاءات هروبا من الجحيم القاتل.. اختار ليبيا اذ التقى به احد طلابه الذي اصبح امينا عاما للتعليم العالي فقال له: لدي كلية جديدة واريدك عميدا لها وفعلا جعله عميدا للدراسات العليا هناك.

وكانت بصحبته ابنته التي ارتأت عدم الزواج للقيام على خدمته بعدما ماتت زوجته مريضة القلب. الطريف في الامر بقي صاحبنا في ليبيا ليبدع ويطور موهبته العلمية بما توفر له من جو وموقع وظيفي ممتاز واصبحت كتبه المؤلفة والمترجمة وقتذاك تتجاوز اكثر من ٣٦ كتابا مطبوعا وعشرات البحوث والدراسات مازال اثرها باقيا في معظم جامعات العالم..

الى هنا وحكايتنا التي نسردها بما فيها من حيف وظلم وتعسف وسجن وملاحقة وكبد وشظف عيش لحق بهذا العالم العراقي الجليل والمعروف بالدكتور (نوري جعفر) تكاد تكون عادية وهي شبيهة بقصص وحكايات سمعناها عن شخصيات سياسية عراقية متعددة لكن الغريب في نهاية هذا الرجل العالم الذي ابعد عن وطنه تحت ضغط وظلم السلطات اولا انه بعد استقراره في ليبيا قدم بحثا علميا الى احدى الجامعات البريطانية يختص بالدماغ وكان بحثا فريدا وجديدا يتفوق به على العلماء والمكتشفين الغربيين مما دعا الجامعة البريطانية الى دعوته لمناقشته في اصول البحث هذا..

ان الدكتور نوري جعفر لديه اكثر من بحث اثار العلماء الغربيين به، وقد اهتمت بنظرياته العلمية التي تخص الدماغ الكثير من الجامعات العالمية.. المهم ان العراقي في وطنه على حافة الموت وفي المنافي ارادت له المشيئة الالهية ان يكون على تخوم الموت ايضا.. استجاب العالم العراقي الدكتور نوري جعفر لدعوة الجامعة فرحا في بحثه هذا الذي تعب وشقى من اجله سيكون في صالح العلم وخدمة الانسانية..

بالمناسبة ان الدكتور نوري جعفر لديه اكثر من بحث اثار العلماء الغربيين به، وقد اهتم بنظرياته العلمية التي تخص الدماغ الكثير من الجامعات العالمية.. المهم ان العراقي في وطنه على حافة الموت وفي المنافي ارادت له المشيئة الالهية ان يكون على تخوم الموت ايضا.. استجاب العالم العراقي الدكتور نوري جعفر لدعوة الجامعة فرحا في بحثه هذا الذي تعب وشقي من اجله سيكون في صالح العلم وخدمة الانسانية.. فتأنق وحمل بيده حقيبته الجلدية التي تحوي اوراقه وبحوثه واوقف سيارة التاكسي لتوصله الى المطار. وكان ذلك في طرابلس في ليبيا.. وفي الطريق طمع سائق التاكسي بحقيبة الدكتور وحسب انها مملوءة بالدولارات فكان هاجسه الشيطاني اللعين الذي تحرك في تلك اللحظة المجنونة يدفعه للحصول على الحقيبة حتى لو قتل صاحبها... وكأي مجرم يلعب به الشيطان حمل بيده الة حديدية استخرجها من صندوق سيارته ليهشم بها دماغ الدكتور نوري جعفر ويرديه قتيلا دون رحمة بسنه او علمه او غربته فقد اوصد المجرم كل منافذ الرحمة داخله ليفوز بالحقيبة ومن ثم ليفاجأ بخلوها من الدولارات اللعينة... وكان ذلك الحادث المأساوي في السابع من تشرين الثاني عام ١٩٩١ لتنتهي بذلك قصة حياة عالم عراقي جليل نهاية مأساوية اهملها النظام السابق وغمط حق الدكتور الجليل كما غمطها في السابق لتضاف هذه الحكاية الى عشرات بل مئات الحكايات السود التي ابتلعها النسيان وضاعت في ظلام المنافي وليرحم الله تعالى الدكتور العالم المكافح نوري جعفر... ويموت العالم ولاتموت ذكراه.

مؤلفاته

الكتب:

١- السلطة والفرد، مترجم،برتراندرسل، بغداد، مطبعة المعارف،١٩٥٠.

٢- التربية وفلسفتها،١٩٥٢.

٣- وقائع تزوير انتخابات النواب،١٩٥٤.

٤- التاريخ، مجاله وفلسفته، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٥٤.

٥- جون ديوي- حياته وفلسفته، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٥٤.

٦- العلوم الطبيعية واثرها في سير المدنية الحديثة،١٩٥٥.

٧- علي ومناوئوه، بغداد، مطبعة دار الحديث،١٩٥٦.

٨- فلسفة الحكم عند الامام، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٥٧.

٩- المبادئ والرجال، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٥٨.

١٠- الثورة مقدماتها ونتائجها، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٥٨.

١١- فلسفة التربية، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٥٩.

١٢- اقتراحات لتطوير التعليم في العراق، بغداد، مطبعة اتحاد الادباء العراقيين،١٩٦٢.

١٣- الفكر: طبيعته وتطوره، منشورات الجامعة الليبية،١٩٧٠.

١٤- الجهاز المركزي العصبي، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٧١.

١٥- اللغة والفكر، الرباط، مكتبة القومي،١٩٧١.

١٦- Creativity and Brain Mechanisms، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٧٦.

١٧- الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي، اصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٧٦.

١٨- طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف، حـ٢، بغداد، مطبعة الزهراء،١٩٧٧.

١٩- التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية والتربوية، الموسوعة الصغيرة، ١٣، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والفنون،١٩٧٨.

٢٠- طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف، بغداد، مكتبة التحرير، ط٢، ١٩٧٨.

٢١- الاصالة في مجال العلم والفن، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام،١٩٧٩.

٢٢- الفكر التربوي الاشتراكي، مع آخرين، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨١.

٢٣- الجوانب السايكولولجية في أدب الجاحظ، وزارة الثقافة والاعلام،١٩٨١.

٢٤- اراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة في التراث العربي والاسلامي، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام،١٩٨٢.

٢٥-دور المؤسسات التربوية في مجال التنمية الاقتصادية في الوطن العربي، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام،١٩٨٣.

٢٦- الخيال العلمي في أدب الاطفال، بغداد، دار ثقافة الاطفال،١٩٨٥.

٢٧- طبيعة النوم والاحلام في ضوء علوم الدماغ، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الصغيرة(٢٦٥)،١٩٨٦.

٢٨- مع الحريري في مقاماته، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الصغيرة(١٩٠)،١٩٨٦.

٢٩- آفاق تربوية رحبة في التراث العربي الاسلامي، بغداد، وزارة التربية،١٩٨٧.

٣٠- رعاية الطفل في الاسرة- مبادئ عامة، بغداد دار ثقافة الاطفال،١٩٨٧.

٣١- آراء حديثة في تفسير نمو الطفل وتربيته، بغداد، دار ثقافة الاطفال،١٩٨٧.

٣٢- الحب بين القلب والدماغ، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الصغيرة(٢٩٠)،١٩٨٧.

٣٣- ادب قصص الخيال العلمي وعالم الاطفال، بغداد، دار ثقافة الاطفال، ١٩٨٧ط٢.

٣٤- Fundamentals of Neuropsychology Published by Graphic Cross، ١٥٥، Movement Road London،١٩٨٨.

٣٥- كتابان: بين الجاحظ وجورج برناردشو وجائزة نوبل، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الصغيرة،١٩٩٠.

٣٦- مجالات التربية الخاصة، مع آخر، بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، هيئة المعاهد الفنية، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر،١٩٩١.

* استاذ علم الاجتماع

نوري جعفر: التفكير حق مشاع لكل الناس

عصام عبد العزيز المعموري

ما الإبداع ؟ وما مكوناته ؟ وما طبيعة العملية الإبداعية ؟ وما مستويات الإبداع ؟ وهل هناك مراحل للعملية الإبداعية ؟ وهل يمكن تعليم الإبداع والتفكير الإبداعي ؟ وما الخصائص التي تميز المبدعين من غيرهم ؟

ومن الباحثين الذين حاولوا تقديم تفسير للعملية الإبداعية كان الأستاذ الدكتور (نوري جعفر) رحمه الله الذي درّس في كلية التربية جامعة بغداد لسنوات عديدة.

لقد وضع د. نوري جعفر تفسيرا» عراقيا» للإبداع تفرد به عن غيره من المنظرين ، وقد وضع هذا التفسير في كتابه (الإبداع وآليات الدماغ) عام ١٩٧٤ بعد دراسة طويلة استغرقت (١٢) عاما» بدأها عام ١٩٦٢ حيث يرى أن((قشرة مخ الإنسان تنفرد بوجود مناطق مخية خاصة بالإنسان وحده تسمى المناطق المخية الثلاثية وتنقسم هذه المناطق إلى قسمين : حسية وجبهية ، تقع الأولى من القسم الأعلى الأوسط في القشرة المخية وعلى جانبيها الأيمن والأيسر ، ووظيفتها الأساسية الإدراك الحسي ، وهي الأساس الجسمي (المادي : الدماغي) ، أما المناطق الجبهية فتقع في القسم الأمامي الأعلى في القشرة المخية ووظيفتها الأساس الإدراك الفعلي ، وهي الأساس المخي (المادي : الجسمي) وهي أرقى مناطق المخ وأحدثها من الناحية التطورية)) (٢).

كما يرى د. نوري جعفر أن المناطق المخية الحسية الثلاثية هي الأساس المخي للإبداع في مجال الفن ، في حين أن المناطق المخية الجبهية الثلاثية هي الأساس المخي للإبداع في مجال العلوم الطبيعية والنظرية ، وعلى هذا الأساس بإمكان الناس أن يبدعوا إذا هيئت لهم الظروف البيئية الملائمة واستثمروا مناطقهم المخية الثلاثية إلى حدها الأقصى في الموضوع العلمي أو الفني الذي يميلون نحوه منذ سن مبكرة .

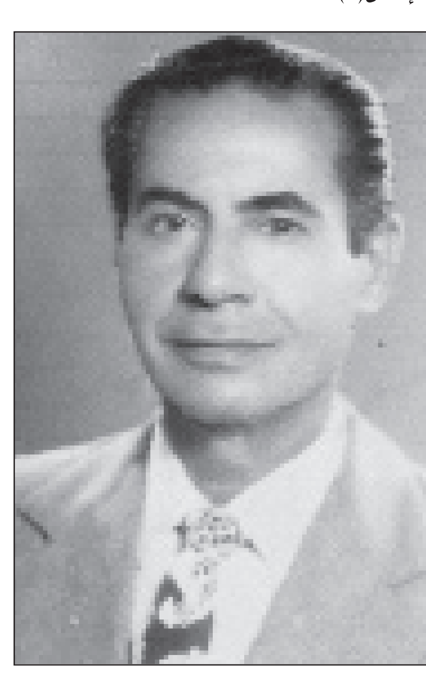
لقد ظل د.نوري جعفر يردد منذ عام ١٩٧٤ حتى وفاته في ليبيا عام ١٩٩١ (أن التفكير والإبداع حق مشاع لكل الناس الأسوياء عند توافر الظروف المناسبة لتحفيزهما وتنميتهما) وقد كان يدعو إلى تدريس مهارات التفكير للأطفال والشباب والكبار وكان يخالف الرأي القائل أن (الإبداع لا يمكن تعلمه أو تعليمه وأنه محدد بعوامل الوراثة الفطرية أو الجينات) الذي كان يتبناه كل من الفيلسوف اليوناني أفلاطون وعالم الوراثة البريطاني (كالتون) وعالم النفس الألماني المولد البريطاني الثقافة والعمل (ايزنك) وغيرهم ، إذ كان (ايزنك) يشير في أكثر من مناسبة إلى أن ٨٪ من العوامل التي تسهم في تحديد الذكاء ومن ثم الابتداع يرجع إلى المحددات الوراثية الجينية و٢٪ للعوامل الحضارية والاجتماعية والتربوية (٣).

إن القدرة على الإبداع كما يراها د. نوري جعفر صفة مكتسبة تنشأ بالتدريب والممارسة نتيجة تفاعل إمكانات الشخص المخية مع العوامل البيئية المحيطة ولاسيما الثقافية منها في موضوع تخصصه ، أي أن الجانب المبدع يحصل في كل عمل ذهني يقوم به الشخص نتيجة الممارسة الناجمة عن تفاعل الفرد والإمكانات الاجتماعية والثقافية المتوافرة له (٤).

وكان د. نوري جعفر يدعو إلى تغيير أنماط التدريس التقليدية السائدة في مدارسنا في كتابه (التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية والتربوية) وكان يدعو إلى ضرورة تحويل الصف إلى مختبر يحضر فيه الطلاب للاكتشاف والبحث وان كان مايكتشفونه قد توصل إليه غيرهم : أي أنهم يتوصلون بأنفسهم وبمعاونة المدرس والكتاب إلى الاستنباطات الجديدة – بالنسبة لهم – وعلى وفق مستوى تطورهم الثقافي واستنادا» إلى تفكيرهم المستقل ، لا أن يقتصر الأمر على مجرد تلقي المعلومات القديمة وترديدها بشكل آلي في أغلب الأحيان (٥) .

وفي مجال البحث العلمي كان د.نوري جعفر يرى ضرورة سير البحث في المجال العلمي في البلاد العربية في جبهة عريضة متماسكة ذات ثلاثة جوانب متلاحمة متكاملة ومتبادلة الأثر، يتمثل الجانب الأول فيها بالجانب النظري الأكاديمي في الرياضيات والعلوم الطبيعية الأساسية : الفيزياء ، الكيمياء، علوم الحياة . ويتمثل الجانب الثاني فيها بالجانب التطبيقي (التكنولوجي) الذي تستخدم فيه العلوم التطبيقية لأغراض التنمية الاقتصادية والاجتماعية استخداما» مباشرا» في حقل الإنتاج الصناعي والزراعي وفي مجالات الخدمات (التعليم ، الطب ، المواصلات) أما الجانب الثالث فهو الجانب السيكولوجي المتعلق بتهيئة العنصر البشري الكفء والمدرب والملتزم بقضايا مجتمعه وبالمجتمع الإنساني أيضا» (٦).

لقد كان د. نوري جعفر ينحى منحى فسلجيا» (Physiological Tendency) في تفسيره عملية الإبداع بعد أن استوعب آراء أبرز منظري هذا المنحى وهم عالم الفسلجة الألماني برودمان Brodmann الذي قسّم فيه المخ على مناطق متعددة لكل منها وظائف فسلجية محددة يقع بعضها فوق بعض (بخلاف التقسيم التشريحي المألوف : مخ ، مخيخ ، ونخاع مستطيل .. الخ) وعالمي الفسلجة الايطالي ماكون Magon وماروزي Marosi اللذين اكتشفا الجهاز المشبك (Reticular Formation) الذي يقع أسفل الدماغ وهو العضو المسؤول عن تنشيط الدماغ ، وعالم الفسلجة الروسي بافلوف Pavlov صاحب النظرية في خصائص الجهاز العصبي المركزي عند الإنسان ومضامينها السيكولوجية والعالم الأمريكي كبرز Kappers صاحب الآراء العلمية الحديثة في تفسير نشوء الجهاز العصبي المركزي وتطوره في المملكة الحيوانية حتى بلوغه أعلى مراتبه لدى الإنسان(٧).



عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين

التصميم: نصير سليم

الغلاف برؤية: علاء كاظم

التصحيح اللغوي: عبد العباس الأمين

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

نوري جعفر ..
رجل النهضة والاصلاح

ولد الدكتور نوري جعفر في عام ١٩١٤ في مدينة القرنة بمحافظة البصرة لأب فلاح فقير.. وبجهده واجتهاده وفطنته وذكائه حصل على معدل عال في المرحلة الإعدادية يؤهله لدخول كلية الطب بتفوق.. حمل شهادة البكالوريا وأوراقه وجاء الى العاصمة بغداد ليصدم بامتحان المقابلة التي تجريها كلية الطب بعميدها الإنكليزي سندرسن باشا الذي سأله بعد ما رآه بزيه الريفي هل بمستطاعه ان يصرف كل شهر (٥) دنانير على دراسته فأجابه بطيبة الفلاح الجنوبي الفقير: لا أنا ولا أبي شاهدنا ال(٥) دنانير هذه! فرفض الانكليزي سندرسن باشا قبوله في كلية الطب رغم ان معدله ٩٤٪ الى فرع لاعلمي مما دعاه الى تحويل أوراقه الى دار المعلمين العالية ويكون واحداً من المتفوقين الذين ارسلوه في بعثة دراسية الى امريكا ليحصل هناك على شهادة الماجستير والدكتوراه ب(٥) سنوات وكان من اساتذته هناك الفيلسوف الامريكي جون ديوي ابو البراغماتية والمنظر الكبير للديموقراطية الأمريكية الذي أعجب بذكاء الطالب العراقي ونباهته وتنبأ له بمستقبل زاهر يخدم به بلده والإنسانية جمعاء.. وعند عودة الدكتور نوري جعفر الى بغداد عين أستاذا في كليتها ليكون واحدا من المع الكفاءات التي اسهمت في بناء جيل علمي حتى مجيء(الأوباش) عام ١٩٦٣ اذ فصل من وظيفته ظلما وعدوانا ولكنه تفرغ للبحث العلمي ليبدع في ميدانه ويعرف ببحوثه الفائقة في الجامعات العالمية مما اضطر السلطة لاعادته الى الوظيفة في الجامعة عام ١٩٧٠.. حتى احال نفسه على التقاعد بعدما لاقى من عنت السلطات ما لاقى وليكون عرضة مرة أخرى لمتطلبات العيش في الظروف المعيشية القاسية التي مرت في العقود الماضية وتحت ضغوط عديدة منها ماهو سلطوي ومعيشي اجبر على الهجرة. واختار ليبيا اذ التقى به احد طلابه الذي أصبح أمينا عاما للتعليم العالي فقال له: لدي كلية جديدة وأريدك عميدا لها وفعلا جعله عميدا للدراسات العليا هناك. كانت بصحبته ابنته للقيام على خدمته بعد ما ماتت زوجته مريضة بالقلب.

الطريف في الأمر بقي صاحبنا في ليبيا ليبدع ويطور موهبته العلمية بما توفر له من جو وموقع وظيفي ممتاز وتجاوزت كتبه المؤلفة والمترجمة وقتذاك أكثر من ٣٦ كتابا مطبوعا وعشرات البحوث والدراسات ومازال أثرها باقيا في معظم جامعات العالم.

و الى هنا وحكايتنا التي نسردها بما فيها من حيف وظلم وتعسف وسجن وملاحقة ومكابدة وشظف عيش لحق بهذا العالم العراقي الجليل والمعروف بالدكتور (نوري جعفر) تكاد تكون عادية وهي شبيهة بقصص وحكايات سمعناها عن شخصيات سياسية عراقية متعددة. لكن الغريب في نهاية هذا الرجل العالم الذي ابعد عن وطنه تحت ضغط وظلم السلطات انه بعد استقراره في ليبيا قدم بحثا علميا الى احدى الجامعات البريطانية يختص بالدماغ وكان بحثا فريدا وجديدا يتفوق به على العلماء والمكتشفين والغربيين مما دعا الجامعة البريطانية الى دعوته لمناقشته في أصول البحث هذا. استجاب العالم العراقي الدكتور نوري جعفر لدعوة الجامعة فتأنق وحمل بيده حقيبته الجلدية التي تحوي أوراقه وبحوثه وأوقف التاكسي لتوصيله الى المطار. وكان ذلك في طرابلس في ليبيا.. وفي الطريق طمع سائق التاكسي بحقيبة الدكتور وحسب أنها مملوءة بالدولارات فكان هاجسه الشيطاني اللعين الذي تحرك في تلك اللحظة يدفعه للحصول على الحقيبة حتى لو قتل صاحبها... وكأي مجرم يلعب به الشيطان حمل بيده إلة حديدية استخرجها من صندوق سيارته ليهشم بها رأس الدكتور نوري جعفر ويرديه قتيلا دون رحمه بسنه او علمه أو غربته فقد أوصد المجرم كل منافذ الرحمة داخله ليفوز بالحقيبة ومن ثم ليفاجأ بخلوها من الدولارات اللعينة.. وكان ذلك حادث ماساويً في السابع من تشرين الثاني عام ١٩٩١ لتنتهي بذلك قصة حياة عالم عراقي جليل نهايه مأساوية



